مجموعة قصصية

ومضة روح

بقلم

عبد الفتاح البقاوية

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية

ومضة روح

أسم المؤلف: عبد الفتاح البقاوية

–

التدقيق اللغوي: دار الفراعنة

التجهيزات الفنية والطباعة:

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

- رقم الأيداع: 10608 / 2025م
- الترقيم الدولي: 2 – 44 – 8883 – 977 – 978

- الأراء الـواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجـه الدار، بل تعبر عن رأى المؤلـف فى المقـام الأول.
- حقوق الطبع والنشـر لهذا المصـنف محفوظة، للناشـر، ولا يجوز بأي صـورة إعادة النشـر الكلي أو الجزئي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويلـه رقميًا، أو إتـاحتـه عبر شـبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف ومن الناشر.

الروح قبس مقدس من نور الاله

الإهداء

إليك يا أيتها التي أرست القواعد الأربعين للعشق

المقدس

أليف شافاق

-1-

ومضة روح

ألقت قلمها فوق رزمة الأوراق التي تكتب فيها روايتها والتي توقن أنها لن ترىٰ النور أبدا، ثم اقتلعت نظارتها بيمناها وطوحت بها متململة فوق الطاولة المستديرة العتيقة أمامها وفركت بإبهام يسراها وسبابتها عينيها الفيروزيتين اللامعتين رغم الإرهاق المطل من تلك الهالة السوداء حولهما، ثم سحبت يدها المتكئة علىٰ الطاولة تمسح وجهها الناضح بحمرة عجيبة من وهج شمس شتائية دافئة فصار يحاكيها في لحظات إيواءها إلىٰ عوالم أخرىٰ، وأخذت تداعب ذقنها متراجعة بظهر كرسيها إلىٰ الوراء تغمض عينيها وهي تمرر أصابعها في خصلات شعرها الكستنائي الحريري

المختلط ببعض الشيب فأضفىٰ إلىٰ جمالها سكينة ووقارا.

كانت الساعه الثامنة صباحا موعد قهوتها الصباحية فتحت جفونها وأطالت النظر إلىٰ الفضاء الممتد حولها ثم خفضت عينيها لتديرهما ببطء حول تلك المساكن التي انتشرت حول مسكنها.

حدثت نفسها كعادتها قائلة:

- آآآه لقد كان منزلي هو الوحيد في تلك المنطقة منذ خمس عشرة سنة انقضت لم أبارح حديقته يوما ولم أر الطريق الرملي الموصل إلىٰ هنا منذ ولجت هذا البيت، ولا أعلم أما زال رمليا أم ألبسته الأيام حلته السوداء الأسفلتية.

انقضت نصف الساعه وهي تقلب بعضا من صفحات ماضيها.

- من النادر جدا ألا تقومي إلىٰ قهوتك في ميعادك سيدتي.

انتفض جسدها كمن أصابتها صاعقة، والتفت إلىٰ صاحب الصوت ترمقه بنظرات غضب وريبه واستنكار، ثم تساءلت بهدوء غاضب:

- كيف دخلت إلىٰ هنا؟

رغم غضبها المتّقد إلا أن صوتها كان أنثويا حالما يحمل دفئا محببا يبعث علىٰ ارتياح النفوس.

القت سؤالها ثم نظرت إليه تنتظر الجواب.

تضاعفت دهشتها مرة أخرىٰ حين نظرت إلىٰ ذلك الرجل النحيف داكن البشره والذي يحمل في يديه فنجاني قهوة تركية تتصاعد الأبخرُ

منهما لتصل الرائحة القوية إلىٰ أنفها الخبير بروائح القهوة المتنوعة.

كان يحمل فوق شفاهه المكتنزة ابتسامة مزينة بأسنان ثلجية لامعة ابتسامة هي الأجمل علىٰ الاطلاق، عيناه تبرقان بذكاء ألمعي حاد وتطل منهما طاقة لا تتناسب وسنوات عمره التي تجاوزت منتصف العقد السادس.

كل ذلك لم يكن مصدر هلعها ولكن الأمر بدا وكأن "عزيز زاهارا" بعث من قبره الذي كان آخر ما وقفت أمامه منتحبة قبل أن تتخذ هذا البرج العاجي عن تخوم الخلق وقتئذ متوهمة قدرتها علىٰ أن تكمن في نتوء لاتصل إليه أعينهم أو تدركه نظراتهم، كادت تصرخ باسمه إلا أنها

ظلت جامدة ساكنه كأنها لقطه كاميرا، تحرك الرجل فوضع أمامها فنجانا ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شيء حتىٰ وقع بصره علىٰ صندوق خشبي بجوار الحائط المرتفع الملتف حول منزلها حمله ثم وضعه قبالتها وجلس فوقه بهدوء وابتسامته الساحرة الحالمة لا تفارق شفتيه المكتنزتين.

حملت نظراتها حدة مخفية مترقبة رغم هدوءها ثم قالت:

- لماذا تجلس ؟ أنا لم اسمح لك.

صمت لحظات بدت ثقيلة عليها ثم تحدث باسما قائلا بصوت تألفه جيدا:

- أنا هنا لأبدد دهشتك سيدتي.
- أية دهشة تقصد؟

كانت تجاهد لتظل متماسكة أمام ذلك الرجل غريب الأطوار.

تحدث بآداء مسرحي:

- اووووه عزيزتي..... إن الأمر لجد عظيم.

نظر إليها فأحست أنه يهتك ستر بواطنها، وينهش سريرتها، وكادت تنفجر صارخة في وجهه إلا أنه أكمل في هدوء قاتل مريب متسائلا بلهجة أودعها نبرات مثيرة للشغف:

- ألا تريدين أن تعلمي مجريات الأحداث في العالم الذي انقطعت عنه طواعية منذ أكثر من خمسة عشر عاما؟

طفح علىٰ قسماتها فضول عتيّ، فنبرات هذا الرجل لا تختلف كثيرا عن نبرات عزيز التي مازالت تحفظها في وعيها، الأمر الذي أتىٰ علىٰ ما تبقىٰ منها من جلد فازدات حمرة وجهها النضير وانتفضت ارتعاشة يمناها القابضة علىٰ طرف الطاولة وهو يقول:

- اووووه أنت إذا إيلا روبنشتاين.

قالها في وله يتقاطر مع حروفه، ثم أطلق صفيرا منغما قائلا في فتون:

- ما زلت فاتنة سيدتي.
- كيف لك أن تعرف اسمي؟
- ليس فقط اسمك الذي أعرفه، إنما كل شيء عنك ، ولست أنا فقط من يعرفك وإنما كل

البشر علىٰ ظهر هذه الارض يعلمون من هي إيلا روبنشتاين ؟

ملأرئتيه بالهواء ثم قال في هيام :

- سيدتي لقد نلت شهرة لم يحلم بها أحد علىٰ الأرض من قبلك ، والعجيب المدهش أن أهل الأرض قاطبه أحبوك، حتىٰ ديفيد زوجك كان نبيلا ومتسامحا وعاشقا رغم ما كان منك.

كل كلمه نطقها جاك كانت تفتح مجلدا من التساؤلات الهائجة الهادرة، والغريب أنه ما زال يحتفظ بتلك الابتسامة الساحرة.

- تبا لك .

صرخت في وجهه ثم ازداد حنقها فقالت بحسم:

- هل لك أن تغرب عن وجهي؟

صمتت ثم أردف متوعدة :

- سأتصل بالشرطه إن لم تختف عن ناظري الآن.

أجابها في برود عجيب:

- أراهن أنك لا تعرفين آلية الاتصال بالشرطة.

ثم أردف متعمدا إثارة شغفها:

- كل شيء قد تبدل سيدتي، العالم أضحىٰ علىٰ غير ماتركتيه لقد أعيدت هيكلته وتشكيله عالما آخر.

ابتلع ريقه وهو يحرك رأسه ببطء مثير مستنشقا شهيقه وقال وهو يحاول تهدئة عصبيتها البادية في نبراتها وحركاتها:

- هوني علىٰ نفسك فلست أريد ان أكدر صفوك أو أعكر سلامك أو أن أشق عليك بل أردت فقط أن أُعْلمك بأنك كنت مصدر إلهام للعالم بأكمله، كنت مصدرا للسلام ومنبعا للحب الذي لم يكتمل في أحد من البشر غيرك.

كانت تتابعه في شغف وانبهار وكل خلجة في وجهها تفضح تيهها وتوجسها وبراءتها، وكان هو يتحدث إليها بهذه الطريقه التي أذابت ما كانت تصطنعه من بلادة حس أو قسوة رد، كان يعزف باحتراف خبير علىٰ أوتارها ويربت برقة علىٰ ضرعها حتىٰ تستكين، فوجدت نفسها في لحظات وقد سكن ما بمحيطها من غضغضة وهدير، وانحسرت أمواجها الثائرة وارتمت علىٰ شاطئ جاك وادعة مستسلمة تنظر إليه طامعة في

أن يهدي إليها هدأة الروح وسكينة قلب مازال يمتلأ عشقا وولها بعزيز.

خرج صوتها كرفرفة أجنحة فراشات تحمل أبهر الألوان:

- لقد أثرت فضولي يا عزيز،،أووووه.... آسفة ..أأأأأعتذر...

تلعثمت واصطبغ وجهها بحمرة حياء فشع وجهها رقة في حين اتسعت ابتسامته الساحرة وهمس لها:

- ليتني كنته، فما حسدت أحدا علىٰ شيء مثل ما حسدت هذا العزيز علىٰ امتلاكه صاحبة هذا الفؤاد الذي اتسع لكل الدنيا.

صمت ثم اردف بهدوء رصين:

- جاك .... اسمي جاك صاحب ذلك الشاليه.

وأشار إلىٰ منزل مطل علىٰ منزلها من الجهة الغربية ثم أكمل:

- أنا جارك منذ خمس سنوات.

نظرت بلا وعي حيث أشار، لم تنتبه لهذا المنزل أو لغيره من البيوتات التي انتشرت حولها، فلم تكن بحاجة تدعوها لمتابعة ماوراء السور الذي طوقت به ذاتها قبل أن يحيط بمنزلها.

نظر إليها مليا ونظرات الإعجاب تفضح ما به، ثم أضاف بحماس جعل الحروف تخرج من بين شفتيه عجلىٰ:

- كنت تملئين سمع الدنيا وبصرها، وقصتك كانت حديث الكوكب ... رجاله وشبابه ونسائه

وحتىٰ أطفاله، لقد كنت علىٰ كل مواقع التواصل في هذا الكون بل إن الكثير من المؤسسات التعليمية درست قصتك.

- قصتي!! أنا!! أي قصة تقصد ؟ هل تقصد قصتي مع عزيز؟ ولكن كيف عرفوا؟ ولماذا كل تلك الضجة ؟ وإذا ....

قاطعها بأن وضع أصابع يده برفق علىٰ شفتيها متمتما في وله:

- هووووووووس.... لا تتعجلي فسأخبرك كل التفاصيل، فأنا لا أَكلُّ ولا أملُّ الحديث معك أو عنك.

وكأنها استنشقت عطرا من عطور الجنة يفوح من يده التي أرادت اسكاتها فأسكرها، فاستجابت له في دعة وصمت.

- كلا ليست قصتك مع عزيز هي البداية .

حك إبهامه بأسفل ذقنه الدقيقة وبدا كمن يحاول استرجاع أحداث بكل تفاصيلها:

- البدايه كانت حين قام ديفيد زوجك وولداك بالتنقيب عنك في أركان الدنيا الأربعة، بعد رحيلك مع عزيز إلىٰ وجهتكم التي كانت دون عنوان مخلِّفة وراءك حياتك التي لم تكن حياة -علىٰ حد اعتراف ديفيد نفسه-

نظر إلىٰ عينيها في تودد وسألها هامسا:

- هل تذكرين ذلك الخطاب الذي أعطيتيه لموظف الاستقبال في آخر الفنادق التي قضيت فيها آخر لياليك مع عزيز؟ وكلفتيه أن يرسله إلىٰ زوجك وأبنائك، واعتذرت منهم عما حدث أو سيحدث منك.

هزت رأسها إيجابا ورددت في شرود وقد اكتسىٰ وجهها بوشاح من الحزن:

- نعم أذكر ... أذكر جيدا
- أتعلمين أني أحفظ كلماتك في هذا الخطاب .

نظرت إليه متسائلة فقال :

لقد قرأه زوجك أكثر من مرة في أكثر من بث اعلامي معه.

صمت وصمتت فعمَّ المكان سكون لايقطعه إلا صوت أنفاسهما المترددة وكأنما ينتظران من الصمت أن يتكلم، فتنهد ثم قال:

- لقد كتبت لزوجك وولديك هذه الكلمات
- (عزيزي ديفيد، ابني الحبيب، ابنتي الرقيقة:

اليوم انقطع الطريق الذي كان يحمل أقدامنا سويا لعشرين عاما خلت إثر أحداث لم أتوقع أن تجيء مطلقا، لقد انقسم إلىٰ طريقين متوازيين أو غير متوازيين لا يهم وإنما لن يلتقيا بعد الآن أبدا.

ثمة أمور لا يمكن تجاوزها إلا بعد الإحتراق، فالحديد لايفارق صدأه إلا بعد صهره في قوالبه، وثمة مشاعر لا تستقيم الحياة بالتغاضي عنها أو تجاهلها.

نعم .... لقد رحلت عنكم دون عودة، سأتخذ حائلا بيني وبين تخوم البشر وسأنشأ جبلا دونهم ... ليس لأنني أقوىٰ علىٰ ذلك بل لأنني

أصبحت هشة رخوة لا أقوىٰ علىٰ تلك الحياة التي ألفناها سويا.

إنني أنتفض رعبا كلما تخيلت ذلك العذاب الذي أنا قادمة عليه -وما كان ذلك طواعية أو اختيارا- إن أقسىٰ ما سأعانيه وأشد ما سوف أقاسيه هو أنني سأحرم ابتسامتكم، وأني قد أكون سببا في تعاسة ستلازمكم وقتا ليس بالضئيل.

ديفيد : لا تظنن أنني رحلت لأن عزيز وجد في حياتي، فأنا ما ابتعدت من أجل رجل آخر كنت أعلم أنه سيحط رحاله ويصل آخر محطاته بعد بضعة أشهر، إن حسبة بسيطة تقول أنه لا يمكن أن أترك حياتي بكل مافيها لأجل أيام أقضيها مع

رجل عشقته أو عشقني ،،، لكنها حالة .... حالة تحول ... حالة تخلي عن أدران الحياة ....حالة حب مكتمل مع رجل آسر يهبك الروح حياته راضيا وأسمى لحظات سعادته هي أن أتقبل تلك الروح ..... حالة انغماس في طهر الروح ... تلك التي هي قبس مقدس للإله أودعه أجسادنا.

لقد كنت زوجا جيدا ياديفيد ... حقا آلمتني حينها نزواتك -التي غفرتها لك جميعها- لكنني لم أرج الانفصال عنك يوما، فقد كانت بك من خلال الخير والمعروف الإنساني ماكنت بها جليلا عصيا على أن تكون كريها أو مبغوضا عندي.

أتعلم يا ديفيد ؟ لو أنك كنت بلا أخطاء فإن ذلك كان سيكون أسوء ما حدث لي، وأن ما أتاحته أخطاؤك لي من فرصة للتحليق في أجواء الطهر حملني علىٰ أن أحب تلك الأخطاء وأكره مثالية كنت أرتجيها منك يوما ما، لقد انقلب كل شيئ رأسا علىٰ عقب وصار كل أمر إلىٰ نقيضه في مفارقة مذهلة.

لقد أمسيت أقبل كل متناقضات الحياة فما كنت ثائرة عليه من رغبة ابني في الارتباط بإحداهن لم يعد يعنيني في شيء، بل إني تمنيت لو أن بي قوة فأعود إليكم فأعتذر لكم عن ممارساتي الصادرة -حينذاك- من أفق ضيق وعقل لا يستوعب أكثر مما يرىٰ تحت قدميه،

أعتذر لك يا ديفيد عن ضيقي من علاقتك المتعددة، فليس الدنس مايعترينا من سقطات جسد أو زلات أو آثام نقع فيها مختارين تارة ومرغمين تارات، وإنما الدنس هو ما يلوث الروح المقدسة الإلهية من شره وحقد وتباغض واقتتال علىٰ فناء نحياه سيؤول إلىٰ خلود لا نلقي له بالا أو نريض له أنفسنا.

ديفيد : لقد أراني عزيز حقيقة الأمر فعاينتها، ولمستها، ومسنىٰ نور إلهي ، وغمرتني هالة قدسية، وأبهرني كنه الحقيقة فعالجت مابي من أقذار، وأتت علىٰ مابي من خوف وترقب فأحالته سلاما، وبدلت شكىٰ فأقامته يقينا، وأمسيت لا آبه لذلك الفناء الذي نتنفسه وتلك

الهراءات التي نقيم لها الدنيا ولا نقعدها، وصرت أرىٰ الله في كل شيء مفعما بالرحمة، مغمورا بالمحبة في كل أوجه الحياة الهائئة منها أو حتىٰ القاسية الدامية.

لقد تغشاني الإله في صورة عزيز ياديفيد، فلم يكن مابيننا حبا وإنما كان تقديسا، ولم تكن رغبة بقدر ماكانت انصهارا وامتزاجا بسنىٰ القدير حين تجلىٰ لنا بشذرة من نوره، فلم يعد يعنينا من هذا الفناء غير الولوج من باب الحقيقة إلىٰ عالم متناسق متكامل.

لن أطلب الغفران منكم، لكنني سأصلىٰ كثيرا من أجلكم، وسأحدث الله كثيرا عنكم، وسأخبره أن يبتسم لكم.

كانت إيلا تستمع إلىٰ جاك في سكينة وادعة وقد أسندت رأسها إلىٰ الوراء لا تكاد تسمع لها أو منها غير أنفاس تردد، أو ترىٰ حركة إلا لجفنها يعتصر عبرة ملأت مقلتيها لتصعد فوق حافة جفنها السفلي عاكسة أشعة شمس تشق طريقها إلىٰ كبد السماء وتسقط منسابة في مجراها علىٰ خد وجهها النضير الصارخ بصمته عذابا وألما.

وكان جاك ينظر إليها مشدوها مأخوذا وسأل بنبرات متهدجة:

- هل أثرت عليك مواجع الماضي سيدتي ؟

انتبهت لسؤاله فحركت نحوه رأسها المستند إلىٰ وسادة الكرسي ونظرت باسمة في هدوء ودعة ثم قالت وهي تهز رأسها علامة النفي:

- لا عليك ياجاك

صمتت لحظة ثم استطرت

- فقط أكمل ما بدأته.

- وهكذا ودعت حياتك بكل ما فيها دون أثر يدل عليك أو دليل يقود إليك، وأيقن الجميع أن ألا سبيل للوصول إليك ،

وهجرت كل شيء سيدتي من أجل عزيز وكنتم طفتم الدنيا سويا حتىٰ أسلمتيه مستقره الأخير وبالرغم من رجاءك لهم ألا يبحثوا عنك لأنهم لن يستطيعوا الوصول إليك، فقد نبش زوجك وولداك الأرض بحثا عنك إلىٰ أن أعياهم البحث وأجهدهم الترحال في اتجاهات الدنيا الأربعة منهكين يائسين بائسين من العثور علىٰ

طرف خيط يقود إليك إلىٰ أن تتبعوا سير خطابك حتىٰ اهتدوا إلىٰ ذلك الفندق الذي قضيت به أخر أيامك مع عزيز، وأعطتهم إدارة الفندق ما وجدوه من أشياء تخصك كانت في غرفتك، ولا أحد يعلم إن كنت تركتيها سهوا أم عمدا أم تجاهلا ووجدوا قصتك التي كانت حديث العالم بعد ذلك.

كانت تستمع ذاهلة تائهة، وكانت تتمتم وراءه كمسحورة:

- قصتي أنا!! أي قصة تلك ؟ وماذا تقصد بحديث العالم؟

كان جاك باردا كلوح من الثلج أمام تساؤلاتها:

- قصتك (ندبة في القلب) التي كتبتيها أثناء تجوالك مع عزيز.

نظرت إليه مأخوذة بلهاء وهي تردد كأنما تحدث نفسها:

- ندبة في القلب .... نعم كتبتها، وتبينت أني لم أحملها معي حين غادرت الفندق وبحثت عنها كثيرا دون جدوىٰ ولم أشأ أن أعود إلي الفندق للسؤال عنها.

تنفس في عمق ثم قال:

- لقد أخذها زوجك وحرص علىٰ طباعتها، ونشرها، وتعددت طبعاتها وذاع صيتها في كل الدنيا حتىٰ وصلت لأكثر من مليار نسخة في سابقة هي الأولىٰ في التاريخ منذ عرفت البشرية كيف يكتبون.

نشرها ديفيد بلغات عديدة وقام علىٰ الدعاية لها في كل الشركات والترويج علىٰ كل الشاشات ووسائل التواصل، حتىٰ بدأ العالم في التساؤل عن صاحبة القصه والحديث عن إيلا التي هجرت عالمها المزيف إلىٰ عالمها الحقيقي وسنوات عمرها البالغ حينذاك لم تكن أنهت عقدها الرابع بعد

تركها دقيقتين لتهضم هذه الأحداث وهو يتابعها ببصره ويغوص بعينيه المشعتين إلىٰ بواطنها كان يدرك جيدا أثر ما يقول عليها، أما هي فكانت تتمتم وتحدث نفسها بالقسم الذي آلت به أمام قبره:

- عزيز ستبقىٰ خالدا في روحي وأنت تحت التراب كما كنت وأنت فوقه إلىٰ أن ألقاك لقاء لا افتراق بعده.

كل المشاهد والأماكن والصور والبدايات والنهايات تطوف حول عينيها فتبتسم تارة، وتقطب جبينها أخرىٰ، ويعلو وجهها حمرة، ومرة يطفح بحزن الكون، وأخرىٰ تعتصر مقلتيها لتنسال دمعاتها كطل مطر دون أن تصدر صوتا أو تحرك ساكنا لتجسد عصارة الوجع والحصاد الوفير للحزن.

نقل جاك الصندوق الذي يجلس عليه إلىٰ جوارها ليطوق كتفيها وأسلمت له رأسها

فوسَّدها صدره دون أنة أو رمشة أو انتفاضة أو شهقة.

كانت ملاكا يبكي، ونسمة جريحة، وزهرة متوجة بقطرات ندىٰ دامية، وسمفونية تعزف أشجىٰ ألحان الكون، وروحا منبوشة مبتورة مهترئة منهوشة تبحث عن سلامها.

أكمل جاك وهو يضمها:

- واختفيت عن كل الوجوه هنا، ومن هناك رأيتك.

وأشار إلىٰ شرفته في الطابق الثالث ثم أكمل حديثه:

- وكنت كلما أتيتُ رأيتك تعيدين ذات المشاهد التي لم تتمردي عليها يوما، فأنت تخرجين مع أول شعاع للفجر، وتجلسين هكذا تقرأين أو تكتبين وفي كلتا الحالتين تبكين، ثم قهوتك في تمام الثامنة، ثم مجيء أحدهم بإفطارك وبعض حاجاتك في العاشرة، ومن ثم تتوارين حتىٰ تطلين في الرابعة تكتبين أو تقرأين وتبكين، ثم أحدهم يحضر غذائك، ثم قهوتك في الثامنة.

وبقليل من البحث علمت من تكونين، ومن هنا يبدأ شغفي بك وبكل تفاصيلك، فجمعت عنك أشياء ما أخالك تذكرينها منذ مولدك، فقمت بالترويج لقصتك حتىٰ ملأتِ سمع وبصر الدنيا، وأضحيتِ أعظم من كيوبيد.

كان يتحدث ويلوح بيده بشكل مسرحي، فصمت لحظات ثم أكمل تملؤه الدهشة والإعجاب:

- هل تعلمين أن بعضهم قد اتخذك معبودة لهم، لقد منعت نفسي آلاف المرات من اقتحام عالمكِ الذي تكورتِ فيه حول نفسك.
- أتعلمين يا ايلا أنت أشبه ما تكونين بالمحارة قبل أن تلاقي عزيز.
- نظرت إليه متساءلة، فأكمل حديثه قائلا:
- كنتِ تبحرين في حياتك دون أن تأبهي بشيء أو تحفلي بأمر.

صمت يرتشف ما تبقىٰ من قهوته التي أصيبت ببرودة الجو حولهما، فأكملت هي قائلة في تنهيدة طويلة:

- نعم المحار لا ينتج لؤلؤا إلا إذا خدشه شيء.

أكمل بآلية تعجبت لها:

- خدشه بتوقيت ومكان محددين، وكان عزيز هو من خدشك فأنتج منك أسمىٰ ما يمكن لبشر أن يخرجه من بشر.
- آه يا جاك لكنه ألم غير محتمل، عذابات روح ومكابدات وجدان.

صمتت وملامحها تقطر حسرة، وعيونها معبأة بالمرارة، ثم استاذنته لتأوي إلىٰ فراشها.

قام ومدّ إليها يده يساعدها علىٰ النهوض، تناولت معصمه المفتول غير المتناسب مع سنوات عمره وكانت ممتلئة بعض الشيء مما منحها دلالا وأنوثة رقيقة في قيامها واستنادها

على ساعده القوي وتهاديها في مشيتها، ثم قالت وكأنها تقصد أمرا غير الذي تقول:

- لقد منحني عزيز ما يكفيني أن أقضي العمر بلا أحد بعده، لقد ملأ عقلي وروحي حد أنني لم أعد في احتياج إلى بشر.

صعدت درجات السلم المؤدي إلى الطابق الثاني، وهو يطوق خصرها حتى أسلمها لسريرها الذي يتوسط حجرة متوسطة لا يوجد بها سوى سريرها المعدني البسيط، وخزانة ملابسها، وسجادة دائرية تتوسط الحجرة، جلس بجوارها يمسح جبينها، ويمشط شعرها

بيسراه، ويضغط علىٰ يدها بيمناه بحس رهيف، وهمس لها:

- لم أخبرك سبب شهرتك.

نظر إليها علَّه يرىٰ شغفا في وجهها أو فضولا في نظراتها، إلا أنها ظلت مغمضة العينين تطفو علىٰ شفتيها شبح ابتسامة تحمل في صمت مزيجا متناقضا عجيبا لروح السلام ومسحة الأحزان.

أكمل في هدوء رتيب:

- في نادرة أدبيه تم منحك جائزه نوبل عن قصتك "ندبة في القلب"، وبحث العالم كله عن تلك التي نالت أرفع جائزة أدبية، ولا يعلمون أنها

ماكثة هنا تشاهد نفسها وهي تتقلص يوما بعد يوم كشمعة تفقد روحها رويدا رويدا.

أجابته وهي لا تزال مغمضة العينين:

- لم أكن أتقلص ياجاك ..... لقد كنت أعيد ترتيب ذاتي وأولوياتي، وأشكل منظومة قيمي من جديد.

نظر إليها هامسا بنبرات عذبة ولهة:

- هل تسمحين لي؟

فتحت عينيها متسائلة لتطالع ابتسامته الساحرة تقترب من جبينها ليطبع عليه قبلة امتنان وإعجاب، وقبل أن تمد يدها لتبعده برفق كان قد انتصب واقفا قائلا بحيوية واثقة:

- سنكمل حديثنا في المساء، سآخذك إلىٰ العشاء الليلة.

لم تستطع أن تجيب بالنفي، كان يتحدث حالما هائما، ولم تشأ أن تكسر له رجاء، ولكن كيف يمكنها أن تتجاوز عزلتها التي جانبت بها البشر وهتكها اليوم جاك؟ أرادت أن تخبره أن عزيز قد أتىٰ كل أحلامها وأمنياتها ورغباتها ومشتهياتها في الحياة فأكملها وأتمها، ولم تعد بها بقية تهبها لأحد حتىٰ أبنائها،

انصرف جاك قبل أن تجيبه.

غادرها لتبدأ تقليب صفحات في مجلد ذكرياتها ولتسترجع كيف تركت الجميع دون كلمة وداع، لقد هجرت العالم بعد موت عزيز،

وبعد أن أدركت أن هذا الكون بأرضه وسمائه وفضائه ومجراته إنما يدور في رقصة صوفية كونية كان عزيز وحده الذي جعلها أحد الدراويش والراقصين.

لقد سجنت نفسها ونفت روحها، والمنفىٰ غول بلا ضمير ينشب أظفاره في الروح فينهشها ويوهن قواها ويطمس ألقها لتضحي كسيرة مهيضة الجناح مهترئة لولا إرثها من عزيز ذلك القبس الإلهي المقدس الذي غلف روحها ببرد وسلام، والذي أبقاها في سكينه تنتظر انتظار الموقن بالعودة، لقد ارتقىٰ بها مرتقا ساميا، كل شيء في الكون بعده عدم وهباء، لقد تلامست روحها مع الحقيقة الخالصة فانصهرت من

أدرانها وتكونت خلقا آخر، وما عادت تأبه بشيء إلا للقاء أبدي مع عزيز، والتي توقن أنه ينتظرها هناك علىٰ باب الجنة وتعلم أنه لن يطأها دونها.

هاهو ذا يلوح لها بيده مرتكنا علىٰ جذع شجرة وافرة تنبت منذ بدء الخليقة ويشير إليها أن اقتربي، تقترب وتقترب مهرولة لتلقي بروحها بين ذراعيه اللتين احتضنتاها بقوة رفيقة وعنفوان رقيق ولهفة منهكة وأنفاس متلاحقة، لتتلاقي نبضات قلبيهما وتتناجىٰ روحهما الباكيتين، ويتلامس وجدانهما الكسيرين، ضمها عزيز فأحست التئام جراحها ورواء

صداها، واخضوضار أرضها التي تعاني جدبا منذ ألف سنة.

همس في أذنها قائلا بنبرات تحمل رقة الوجود:

- يا إيلا لا ألم بعد اليوم، لا تتألمي يا إيلا.

قالت منتحبة مرتجفة

- أنتظر قدومي عليك، لكنني مللت الانتظار.
- لن تنتظري طويلا، ولكني لست أقوىٰ علىٰ أن أراك تتألمين يا إيلا.
- كل وجع الكون هين حين ألقاك يا شقيق الروح وتوأم ونبض القلب وشغف الوجدان وهدأة الحيران وسكينة الملتاع.

هكذا حدثته وهي تنظر في عينيه وتكاد تلقي بنفسها في محيطهما الغائر، نظر إليها باكيا

بصمت مثلها وكأنما عقدا عقداً أن يكون بكاؤهما مهيبا جليلا كما كان عشقهما، ثم قال :

- ما زال أمامك محيط من الألم يا إيلا، ولكن تذكري أنهم مهما أحدثوه بك أو أحرقوا فروعك فروحك تظل ملكا لك، ملكا لك أنت فقط، فلا تسلمي لهم أو تذعني أو تخضعي لتجريحهم، ودائما تذكري أنني سأكون معك، أطوف حولك، وفوقك.

هنا انتفضت منتبهة من حلمها إثر هزة عليلة من يد جاك وهو يجلس علىٰ حافة السرير بكامل أبهته.

كان يرتدي حلة سوداء لامعة، ورباط عنق بألوان صوفية مزكرشة، لكن ابتسامته كالعادة كانت

الأكثر سحرا رغم ما يشوبها من رتابة غامضة وما يكسوها من جليد.

كانت تشعر في أعماقها بأنه استثنائي لكنها لا تستسيغه، ساحر لكنه مؤدي، أنيق لكنه ثقيل، براق لكنه معتم في باطنه.

نفضت أفكارها ورنت إليه بعينيها باسمة له بامتنان.

نظر إليها ينتظرها أن تتفوه لكنها لاذت بصمت مهيب، نظرت إلىٰ عينيه فأحست وكأنها تغرق في دوامة تأخدها في هوة لا قرار لها، وحفرة مثقوبة تغمرها بظلمات تأخذها من هاوية إلىٰ أعماق محيطات لم يلامس مياهها أحد قبلها.

قطع عنها صمتها وانتشلها من غرقها قائلا في همس:

- كنت تحلمين بعزيز، أليس كذلك؟

لم تطفأ ظمأ سؤاله ولم يُعِد مرة أخرىٰ، وإنما تناول كفها بيمناه ورفعها من تحت إبطها قائلا:

- الليلة فقط .... هذه الليلة اجعليها لي.

ترددت قبل أن تجيب في خفوت:

- لك هذا .... علىٰ ألا تعود مرة أخرىٰ، وألا تخبر أحدا عما حدث.

ترددت قبل أن تكمل في أناقة بالغة:

- ياجاك أود أن أخبرك أنني أحيا فقط من أجل أن ألتقي عزيزا بعد الموت ..... صدقني لن تجد مني بقية تُرتجىٰ.

كان جاك يستمع إليها وعيناه تجوبان أركان الغرفة، وأطال النظر إلىٰ بعض الأرفف التي وضعت فوقها رزم أوراق بعضها مغلف في لفافات بلاستيكية والآخر ينتظر دوره في التغليف، فضلا عن كتب تاريخ وروايات وقصص ومقارنة أديان ونقد أدبي وكتب صوفية رصت علىٰ الأرفف العلوية المعلقة علىٰ أحد جدران الغرفة.

- بل فيك مايكفي العالم بأكمله حبا وسلاما يا إيلا.

قالها في وله وانبهار، ولم ترد أن تكسر رجاءه، وأضاف قائلا في رقة هامسة:

- هذه الليله هي حسبي، ترضيني، تكفيني وزيادة ...، أووووه يا إيلا هذه هي ليلتي المنتظرة أن أكون بصحبتك، ستكون الليلة هي قلادة العمر، فأنت لا تعلمين ماذا تعني لي؟ فقط قومي واغتسلي ثم عودي إليّ.

استجابت في بساطة ورضا ومنحته ابتسامة ساحرة رغم أنها تبدو باهتة، براقة رغم صدئها لاستعمالها النادر، ثم قامت متجهة إلىٰ حمامها بخطىٰ وئيده، وخرجت بعد دقائق فإذا فستان سهرة حريريٌ بلون السماء الصافية ملتمع بنجومه المتناثرة بأناقة علىٰ أطرافه ووسطه مفروش يتوسط سريرها، تناوله جاك من حمالتيه فانداح أمامها بلون كأنه قد اجتز من السماء مع

نجومها، مرصع بماسات عكست ضوء الحجرة بألق مثير ثم بحركة مسرحية قال باسما:

- اسمحي لي مولاتي.

وناولها الفستان.

أمسكت به ناظرة إليه بحيرة، فأضاف بسعادة تغمر خلجاته:

- إنها ليلتي مولاتي، هذا الفستان هو الأغلىٰ في تاريخ البشرية إنه مرصع بالماس الوردي، طرزت أطرافه بياقوت البورما المشع، لم تلبس قبلك أميرة من أمراء التاريخ مثل هذا الفستان، ومنسوج من نتاج أولي لأفضل هجين لدودة القز في العالم، إنه تحفة فنية يتجاوز ثمنه.....

قاطعته بحمحمة رقيقه قائلة في خجل:

- يا جاك لقد أرهقت نفسك فيما لم يعد يعنيني.
- أعلم، لكنه يعنيني.

للمرة الثانية لم ترد أن تخمد ألق الفرحة في عينيه، فانتحت جانبا كي ترتديه وهي تقارن رغما عنها بين ذلك الساحر جاك الذي يهديها أثمن ما في الوجود، وبين ذلك البوهيمي المتصوف عزيز الذي منحها روحا مصقولة حرة تحلق بها في عوالم أخرىٰ غير تلك التي يحلق فيها الآخرون.

لاحظت أن جاك لم يحاول أن يختلس النظر إلىٰ مفاتنها وهي ترتدي تلك التحفة، فأنهت ماتقوم به ثم توجهت إليه واقفة أمامه فرأت اتساع عينيه انبهارا وابتسامة شوق علىٰ شفتيه.

تناول أطراف أصابعها بحركة مسرحية غاية في الأناقة وأجلسها علىٰ كرسي أمام مرآة حجرتها التي يبدو أنها مهملة، ثم فتح علبة كان وضعها أمام المرآه فانكشفت عن مواد تجميليه لم تتعرف واحدة منها -وهي التي كانت من قبل عليمة خبيرة-

وكأنه يقرأ ما يتبادر إلىٰ ذهنها فهمس في أذنها:

- نحن في عام ألفين وثلاثة وثلاثين يا أميرتي.

التقط نفسا عميقا مكملا:

- إن العالم لم يتغير، بل تبدل بالكلية.

تناول المواد من صندوقها المرصع بالذهب الخالص، وكساحر خبير أخذ يضع علىٰ وجهها لمسات أبهرتها، إذ بعد دقائق معدودة لم تكد

تتعرف صورة تلك المنعكسة على المرآة أمامها لولا يقينها بأنها ما زالت جالسة لم تتحرك.

أوقفها بحركة استعراضية ورفع يمناها وأدارها ببطء من أطراف أصابعها لتدور حول نفسها فتبدو كأميرة تكسر حاجز الزمن وتطل من زمن الأساطير، ثم تناول علبة أخرى وفتحها ليتناول عقدا كأنه شكلت ماساته في عوالم الجن، وأخذ يزين به رقبتها ثم سوارا أحاط به معصمها، وخاتما ثبته في بنصرها، ثم قارورة عطر كأنه من عطور الجنة التي لم يتذوق أحد رائحته من قبل، أحاطها برزازها وكاد يفرغها عليها وحولها لولا أمسكت يده أن كفى، ثم فتح علبة أخرى وأخرج معطفا قانيا وضعه على كتفيها فبدت

أشبه مايكون بنجمة متوهجة تخطف الأبصار، فيتسارع ضخ الدماء في القلوب وتصيب العقول بعطب عن إدراك ماحولها باستثنائها.

وجدت بنفسها رغبة أن تتأمل ذاتها مرة أخرىٰ، نظرة إلىٰ المرآة، كانت تجسيما للجمال والرقة والأنوثه في أبهىٰ صورة، لكنها لم تشعر بشيء، فقط بابتسامة شكرته.

ابتسم لها قائلا:

- سيدتي تبقىٰ شيء آخر.

وناولها علبة مرصعة بكافة الأحجار الكريمة التي تعرفها والتي سمعت عنها والتي لا تعرف عنها شيئا.

أشار اليها أن افتحيها ففعلت.

لمعت عيناها ببريق دمع حين وجدت بداخلها كتابا معنونا بماء الذهب البارز (ندبة في القلب)، وعلىٰ الغلاف كانت صورتها وصورة عزيز يحلقان في السماء وينثران باقات الياسمين علىٰ البشر تحتهما باسمين رافعين إليهم أكفهم مودعين، وتحت الصورة اسمها بحروف مذهبة بارزة أنيقة.

ضغط زرا بجانبي العلبة فبدا علىٰ الحائط المقابل لها لقطات لها ولابنائها وزوجها وهم يتسلمون عنها جائزة نوبل وانهمرت دموعها حين رأت ديفيد يمسك الرواية ويقبلها أمام

العالم في مشهد يجسد التسامح البشري في أسمىٰ صوره.

إنه يقبل روايتها عن غريمه، وليس عنه، كيف استطاع ديفيد أن يفعل؟ كيف وصل إلىٰ تلك المرتبة؟ هل أصابته هو الآخر لوثة صوفية؟

ابتسمت وهي تردد:

- يا ديفيد أنت اليوم عندي بلا خطايا، أنت مجرد من كل ما نعتك به من قبل، لعلك علمت حقيقة ماكان بيننا، إنه لم يكن حبا بل كان تقديسا ولم تكن رغبة بقدر ماكانت رفعة وسموا.

ثم توالت المشاهد لها ولروايتها في شتىٰ بقاع الأرض وأطرافها، في أيادي البشر، وفي المحال والمراكز الثقافية والمحافل النقدية، مشاهد

تتتابع لتلك الحالة التي انتابت البشر، إن عزيز لم يكن يحلم يوما بأن سيحدث مثل ذلك يوما ما، إن حالة حب واحدة صادقة خالصة طاهرة جمعت الكون كله حولها، في حين لم تفلح كل الحوارات والسياسات والحروب والكتب وأقوال الدعاة والفلاسفة والأدباء والمفكرين ومراكز الاصلاح والمؤسسات التعليمية والجرائد والمجلات ووسائل التواصل والدعاية حتىٰ المؤسسات الدينية العريقة -التي تحدث الخلق باسم الاله والرب- في خلق حالة كتلك الحالة التي تراها الآن.

حملت في عينيها باقات الامتنان مختلطة بعبراتها والتفت تنظر إلىٰ جاك الذي ما زال يحمل ابتسامته الصامتة العذبة الآسرة.

مد يده إليها فناولته كفها ليرفعها ويدني شفتيه ويلثمها، ثم تأبطت ذراعه قائلة بهمس وحنان:

- هيا إلىٰ ليلتك أيها الساحر.

هبطت درجات السلم المؤدي إلىٰ الطابق الأسفل ومنه إلىٰ بوابة السور الفاصل برجها الذي لم تفارقة منذ خمسة عشر عاما عن الطريق الذي كان قديما رمليا حين وطأته قادمة إلىٰ هنا ظانة أن لا أحد سيخرجها إليه مرة أخرىٰ.

الطريق لم يعد رمليا ولم يرتد عباءته الأسفلتيه السوداء، إنه طريق ممتد تنتشر عليه مكعبات وعلب غريبة تُعرض عليه بواسطة مايشبه البث الهيروغرافي جميع المنتجات في صورة تفوق ألف مرة ما كان يعرف بأفلام الخيال العلمي، وفجأة تظهر أمامها شاشة تطل منها فتاة مبتسمة تنظر إليها باسمة قائلة:

- سيدتي ... أخبريني كيف يمكن لي أن أقدم المساعدة، إن المسح الليزري لبصمة عينيك لايظهر أية بيانات عنك، فهل يمنك أن تزوديني بهويتك حتىٰ أستطيع أن أسجل ......

تدخل جاك قاطعا حديثها بحركة من يده وأنهىٰ العرض قائلا:

- لا تلقي لها بالا.

سارت معه خطوات حتىٰ بلغا سيارته التي ارتفعت أبوابها قبل أن يصلاها، وبمجرد ولوجهما ضغط زرا فأغلقت الأبواب، وارتفعت السيارة لتشق الهواء كطائرة صغيرة كانت تشاهد مثيلاتها فوقها من حديقة منزلها في بعض الآحاين لكنها لم تكن تلق بالا.

دقائق وهبطت الطائرة الصغيرة فوق سطح أحد المطاعم ترجلا وولجا المطعم، قررت ألا يدهشها شيء، فقد بدأت تدرك معنىٰ التبدل الذي حدثها عنه جاك قبل ذلك -رغم أنها لم تستوعبه كلية بعد- فألقت بدهشتها، وتأبطت ذراع جاك حتىٰ استقرا علىٰ مقعدين من الزجاج

غاص بهما كأنه مقعد حريري فانتفضت ناظرة إليه قائلة :

- يبدو أنني لن أستطيع الا أُدهش.
- ابتسم لها وقال مطمئنا لها:
- أنا بجوارك.

كانت توليه ثقة تامة وإن لم تكن تشعر بسكينة الروح، ابتسمت لنفسها مرددة:

- يبدو أنك رحلت ولم تترك لغيرك من يمكنه أن يمنحني بعضا مما ملأتني به ياعزيز.

نظر إليها جاك بابتسامة صامتة ثم تمتم بصوت خفيض يأسر القلب:

- إنه عزيز مرة أخري ياعزيزتي، أليس كذلك؟

خفضت عينيها حياء وهزت كتفيها في دلال دون أن تنبس ببنت شفة.

وفي لحظات كانت المنضدة تعج بأصناف من الأطعمة والأشربة التي لم تقرأ عنها، ولم ترسم لها صورة في مخيلتها من قبل.

نظرت إلىٰ وجوه الناس حولها يتحدثون دون صوت أو همهمة، وقالت لجاك:

- لم يكن يجدر بك أن تأتي بي إلىٰ هنا.

نظر ولم يعقب.

- جاك أشعر أن الأمر لا يروقني.

تالقت عيناه بوهج غريب، ثم قام فجأة قائلا:

- اسمحي لي سيدتي بالانصراف.

- الانصراف؟ إلىٰ أين؟ وأنا؟ ألن ....

لم يمهلها لتكمل سيل تساؤلاتها الحيرىٰ، فمنحها ابتسامته الساحرة، وأولاها ظهره متجها إلىٰ أين؟ لا تعلم.

سقط في يدها، تلفتت حولها لا شيء سوىٰ أناس يتحدثون في صمت،

- لابد أنه قام لإحضار مفاجاة أخرىٰ من مفاجآته التي لاتنتهي.

هكذا حدثت نفسها وطمأنت قلبها بذلك القول، فقبعت في مكانها وأغمضت عينيها، وشرعت تسترجع حياتها السابقة، وتتساءل:

- هل أخطأتُ في حق زوجي وأبنائي حين هجرتهم من أجل عزيز؟ وهل كان بإمكاني ألا

أفعل وألبي النداء؟ وهل تركتهم من أجل عزيز حقا؟ قطعا لم يكن من أجله، فقد كنت أعرف موته المحتم، لقد كان ذلك من أجل الحقيقة، الحقيقة الخالصة، من أجل تلك الحالة، من أجل أن أرىٰ الله في أسمىٰ وأجل ما وضع في قلوبنا، إنه ذلك الحب الذي تدور أفلاك الحياة حوله، الحب الذي يجمع كل أطراف الكون حوله فيطهرها من دنسها البشري، والذي تتحطم عليه كتل الضغائن والأحقاد فيحل السلام الإلهي علىٰ هذا الكوكب المتشاحن منذ الأزل.

ولكن ... أو كان هذا بالإمكان؟ هل يمكن أن يحل السلام دائما؟ لقد حدثتنا الكتب المقدسة عن أول جريمة في البشرية حين قتل قابيل أخاه، لم يكن حب القتل هو الخطيئة الأولىٰ وإنما

كان ذلك الحقد الكامن في أعماقه هو الدافع إلىٰ القتل، ولكن متىٰ وكيف تعلم قابيل الحقد؟ ومن أين اكتسبه؟ هل خُلق به؟ وماذا عن هابيل؟ لماذا لم يُخلق به هو الآخر؟ وماذا لو كان هابيل هو من لم يقبل منه قربانه؟ أكان سيتخلق الحقد في حشاياه ويحمله علىٰ القتل كما حدث مع قابيل؟

ظلت تتنقل في عالمها الذي صنعه لها عزيز قبل أن يفرق الموت بين جسديهما.

فتحت عينيها لتجد ذات الصورة لم يتغير منها شيء، تململت وتساءلت لماذا أنتظره؟ سأقوم، ولكن إلىٰ أين؟ هي حتىٰ لا تعرف عنوانا لها.

قامت متجهة نحو الباب الذي بدا أنه يقود للخارج وهبطت درجات السلّم الآلي حتىٰ وصلت إلىٰ المخرج الرئيس فتحته ووجدت نفسها في شارع خالي من المارة، لا أحد علىٰ الإطلاق، إلىٰ أين سأذهب؟ وقبل أن تجيب لذاتها وبدون سابق إنذار وجدت سربا من تلك الطائرات الصغيرة تطوف فوقها وحولها وتهبط في هدوء، خُيّل إليها لوهلة أن لوثة أصابتها، ولكن أنوار ساطعة أضيئت فبدّلت الليل حولها إلىٰ قطعة من الظهيرة، وظهر أناس كثيرون التفوا حولها متزاحمين ملتصقين تلتحم أكتافهم وتتدافع أجسادهم وتتطاول أعناقهم ناظرين إليها يكادون يتخطفونها بأبصارهم،

رجالا ونساء، يحملون ألآت ومكبرات وأضواء، وانفلتت إحدىٰ الملتفين حولها متجهة صوبها، وبدت لاهثة تتلاحق أنفاسها، وابتدرتها قائلة:

- أنا جين محررة صحافية أعمل في صحيفة "العالم الجديد" بالطبع تسمحين لي ببعض التساؤلات، هل فاجأك العالم بعد كل هذا الانقطاع؟ بماذا تشعرين؟ وماذا كان رد فعلك حين علمت ما حدث من بعدك؟

دار رأسها وتضخم حتىٰ شعرت أنها لا تستوعب شيئا، ولم تجد ما تجيب به غير أن سألتها والحيرة تقطر من حروفها:

- أين جاك؟

كانت كمن تستنجد بذلك الجاك الذي ذاب اختفاء.

اجابتها بسرعة :

- جاك .... نعم لقد ذهب إلىٰ موعد الصيانة.
- صيانة !!! صيانة ماذا؟
- صيانة أجهزته الحيوية.
- ماذا تعنين؟
- أعني أن جاك لابد أن يراجع مركز صيانته في الشركة التي صنعته.
- أي شركة؟ وماذا صنعت؟

كانت كبلهاء وهي تلقي هذه الأسئلة علىٰ تلك الفتاة التي تقف أمامها مع المئات مثلها، ومن بعيد لاح رجل طويل في مثل عمرها تقريبا يقطع

تلاحم المصطفين في هدوء يتقدم نحوها حتى توقف قبالتها، ومد يده يسلم عليها وهي ذاهلة تائهة زائغة العينين تحرك رأسها كمن تبحث عن شيئ وتعلم أنها لن تطبق بها عليه، أرادت أن تصرخ في وجه الجميع أن تفرقوا عني، لكنها لا تفهم شيئا، ولا تعلم من هؤلاء، وضع الرجل يده بجانبه بعد أن يئس من أن تمد له يدا، وقال باسما:

- إيلا .... دعيني أخبرك الأمر.
- أي أمر؟ ومن أنت؟
- أمر جاك.

صمت لحظات يحدق فيها معجبا مفتونا وتمتم:

- أنت فاتنة بالفعل.

وكأنه تمالك نفسه مرة أخرىٰ فقال بصوت مستقيم النبرات :

- الأمر في الحقيقه يعود إلىٰ ثلاث سنوات مضت، أنا (آلان فرويد) كنت أحد رجال الأعمال الذين أضير إنتاج شركاتهم جراء التحول الرهيب في الصناعات في الآونة الأخيرة، ففي لحظات أصيبت شركاتي بانهيار وتراكمت ديون لا حصر لها وجمود في المبيعات، وكافحت طويلا لأتصدىٰ لها، غير أنني لم أكن قادرا علىٰ تخطي المحنة، وساءت كل الأحوال، فكنت أفر من تلك المنغصات إلىٰ ذلك الشاليه الذي أتىٰ إليك جاك منه.

لم تعد قدماها قادرة علىٰ إبقائها منتصبة فتهاويتا وأسرع أحدهم يجلسها علىٰ أحد

المقاعد التي جلبها آخر من داخل المطعم، وبدا على ملامحها التائهة تقلصات اشمئزاز ونفور واستنكار.

وأكمل آلان قائلا متفاخرا:

- وما أخبرك به جاك أن أمر اكتشافي هُويتك كان يسيرا كان صحيحا، ولكن أنا من اكتشفته، فأسررت الأمر، وبدأت أقلبه في رأسي، وكيف سأحسن استغلال تلك الفرصه التي وهبني إياها القدير، فقد أمسيت في ليله وضحاها مدانا بالملايين، وأنت هنا في عزلتك بعيدة عن عالم يلهج باسمك، ويتهادى قصتك، ويبكي عند تماثيلك المنتشره في العالم، هل تعلمين كمّ الملايين التي تربحت بها الشركات والأفراد

الذين استخدموا اسمك أو اسم عزيز أو روايتك وصورك؟ هل تعلمين عدد المشاهدات المليارية والمقاطع الخاصة بك وما يدره ذلك علىٰ أصحابه.

تتلاحق أنفاسه، فيصمت مبتلعا لعابه ثم يكمل في حماسة وانفعال:

- وأردتها صاعقة قوية حتىٰ تتناسب مع تلك العظمة التي أحاطت بك، والقداسة التي نالتك، فقرأت كل شيء، وجمعت ما استطعت عنك، وعن كل ما تحبين وما تكرهين، كل شيء، ثم قصدت إحدىٰ الشركات الالكترونية الحديثة وطلبتم منهم تصنيع جاك.

نظرت إليه نظرة من فقد عقله عقب تلقيه خبر ذبح كل أبنائه وأهله علىٰ يد غاصبين، كان حديثه يقتل بها كل لحظة سلام عايشتها طيلة عزلتها، يفتك بكل راحة أو سعادة عاينتها في عمرها، يمزق نياط قلبها لوعة، ويشعل حشاياها احتراقا، وشعرت وكأن حلقها بُحّ فلم يستطع أن يحمل آهاتها خارج فيها فظلت حبيسة صدرها، وأن لسانها قد شُلّ فخرس عن مجرد التمتمة، وشفتاها ترتعشان تجاهدان في عجز وانهزام لتبوح بوجعها المستشري في كيانها.

وآلان يكمل في نشوة مستعرضا ذكائه ومباهيا بعبقريته قائلا:

- جاك ..... جاك كلف شركته ليخرج إلىٰ الوجود ثروة طائلة بما يوازي مليارات الدولارات قديما -فلم يعد لتلك العملات وجود الآن- يخرج إلىٰ الوجود أفضل كائن آلي لأحدث جيل للإنسان الآلي، تم تصنيعه وتزويده بكل المعلومات عنك وعن بيئتك، وتقريب شكله من عزيز ليقدم عليك يحدثك وتحدثينه، وتبكين علىٰ صدره، وتستشعرين الأنسة والقرب منه، وترتجف أوصالك من ملامسته، وتخشين كسر خاطره، وتتأملين سحر نظراته، وتعانين أسر ابتسامته، وتتأبطين زراعه، وتأمنين لجواره، وتلتاعين لمفارقته.

كان يتحدث إليها وقد شمل جسدها ارتعاش وانتفاض كعارية بين الثلوج.

أما هو فقد برقت عيناه وجحظت، وانتفخت أوداجه وتضخمت، واحمرت وجنتاه حتىٰ بدا لها كشيطان رجيم مزهو بما ارتكب من كبائر، ودَّت أن تمد إليه يدها تخمشه، أو تمسك بعنقه فتغرس أنيابها تقطع ودجه لترىٰ نزيفه حتىٰ الموت، لكن قواها خانتها، فنكست رأسها مستسلمة لوهنها.

ويكمل آلان وهو يرفع يديه عاليا كمؤدي عظيم لمسرحية شكسبير علىٰ مسرح بلكفريرس:

- ويشاهد العالم هذا اللقاء الاستثنائي المثير، من خلال عينيه اللامعتين الساحرتين التين صممتا كأفضل كاميراتي بث حي عبر أثير الإنترنت فائق

السرعة، وشُكل جسدُه من أرقىٰ وأصفىٰ الألياف الزجاجية وأفضلها مرونة.

وبنشوة طافحة قال:

- أووووه عزيزتي، كل البشر في كل البقاع علىٰ الأرض كانوا يشاهدونك طيلة اليوم وأنت بصحبة جاك، لا تتخيلي كم المليارات التي جنيتها اليوم من تلك المشاهدات، إنه أعظم وأسرع ربح حدث لبشر في التاريخ الإنساني.

تزداد ارتجاجة جسدها كمن مسها شيطان رعديد، أو علقت مبتلة من أطرافها بأسلاك كهربائية.

وهو ما يزال يتحدث بنشوته الطاغية ونرجسيته المثيرة للتقيأ:

- ولأنك صاحبة هذا الفضل العظيم فقد قررت أن أمنحك نصف ما جمعت اليوم، إن نصيبك سيكون ثروة أعظم من ثروة قارون، واعلمي أن المحكمة لن تحكم لك بأكثر من الثلث -في حال رفعت شكوىٰ- لكنني أمنحك المزيد والمزيد، فأنت تستحقين.

ثم اشار إلىٰ الملتفين حولها وقال:

- وهؤلاء صحافيو كل المجلات والصحف والقنوات في العالم بأسره يبثون الآن ما يحدث إلىٰ العالم جميعه.

إيلا لا تفعل شيئا غير النحيب المصطحب بشهقات تكاد تذهب روحها وهو غير عابئء بها يتحدث:

- إيلا أنت أعظم إنجازاتي أيتها الفاتنة.

تتقدم إحدىٰ الملتحمات حولها تسألها بصوت رتيب واضح:

- سيدتي أخبريني هل تعانين من .....

لم تمهلها لتكمل بل انتفضت واثبة من جلوسها بقوة وغضب يتنافيان مع هذا التيه البادي في كل خلجاتها، ورفعت كفها لتهوي علىٰ وجهها بلطمة أودعتها الغيظ الطاغي في عروقها والثورة المتقدة في عينيها، فتلقت المذيعة لطمتها ومالت، وتناثر شعرها الناري حول وجهها، وكادت تسقط إلا أنها اعتدلت في برود، ومشطت شعرها بكفها إلىٰ الوراء لتبدو صفحة وجهها الملطومة وقد صارت إلىٰ اللون الأزرق الشفاف ويظهر تحت جلدها وصلات واسلاك

وشرائح معقدة جعلت إيلا تفغر فاها في دهشة عارمة وتتسع عيناها رعبا وتتراجع خطوتين وتردد:

- مس.. مس... مستحيل

ويعلو صوتها أكثر وأكثر حتىٰ يتحول صراخا هادرا :

- مستحيل ..... مستحيل ، إنك أيضا .....

قاطعتها في برود آلي مقيت وكأنها أرادت أن تشعل غيظها وتأجج نارها :

- نعم أنا أيضا آلية، كل من حولك آليون، ولكن هذا لن يمنع مقاضاتي لك، فهناك قوانين تُجرم الاعتداء علىٰ جنسنا.

- جنسكم !!!!!! أنتم المجمعون من ألياف زجاجية ووصلات وشرائح وربما من المخلفات هل أصبح لكم جنس؟

تدخل الآن قائلا في هدوء:

- سيدة إيلا استمعي إلي جيدا، حقيقه لم يقصد أحد إيذاءك علىٰ الاطلاق، الأمر كله محض مصالح ومنافع، نريد أن نقتسمها معك، وأن تعودي إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ.

خدشت بأظافرها عنقه وهي تمد إلىٰ تلبيبه يدها تطوقه بها قائلة في حرقة باكية:

- لقد اعتزلتكم، اعتزلت حياتكم، وهجرت أبنائي وزوجي، خلفت كل الآمال والطموحات ورائي، ورميت بطول الذراع أحلامي، وانتحيت جانبا، أنتظر اللقاء الذي أريد، طوحت بكل ما

حولكم أرضا وانتعلته لأنني لم أعد منكم، صرت شيئا آخر.

ثم صرخت هادرة منهارة بصوت تخنقه دموعها، يرتعش كفاها، ولا تكاد تلتقط أنفاسها حتىٰ تلفظها مع حروف كلماتها وقطرات دموعها التي اختلطت بلعابها ورشح أنفها:

- فلماذا هتكتم ستري؟ وأبيتم عليّ اعتزالي عنكم؟ لماذا أرجعتموني إلىٰ عبثكم؟ وبأي حق تقطِّعون ستائر خدري النائي عنكم؟ أو تنتهكون حرمة احتجابي بحجة المنافع؟

صمتت تائهة، ثم أضافت بصوت متقطِّع مرتعش ونظرات زائغة وملامح مشوهة ورجاء غير محقق:

- لو كنت أرسلت شخصا أو بعثت رسالة تعرض فيها ما تريد احتراما لذاتي، لو.....، لو أنك .....

قاطعها رافعا ذراعيه إلىٰ أعلىٰ في حركة استعراضية:

- ومن قال لك أننا لم نفكر في كل ذلك، لقد كانت لجنة مكونة من عشرة مختصين يناقشون كل ردود أفعالك المحتملة علىٰ أية مفاوضات قد تحدث بيننا، وجميعها أكدت دون شك أنك سترفضين، وربما ترحلين مرة أخرىٰ إلىٰ حيث لا نعلم، فكانت فكرتي العبقرية، أن أصنع لك جاك، وأن يشاهد العالم كله الحديث بينكم، تخيلي أن العالم كله يشهد حوارا وتفاعلا ولمسات ومودة بين إنسان وآلة، فكيف كان

يمكنني أن أتراجع عن تلك الفكرة؟ فكرة إمكانية أن يعيش الإنسان مع آلاتنا الجديدة، وإمكانية أن يعشق الإنسان تلك الآلة، بل وأن يتعاشرا كزوجين أيضا، كل شيء قد أصبح متاحا يا عزيزتي، هل تعلمين أن الشركة التي انتجت جاك دفعت لي ما يوازي قديما ثلاثة مليارات دولار مقابل فكرتي العبقرية؟ شريطة أن أتحمل كل التبعات القانونية، وبحسبة بسيطة وجدتني في ليلة وضحاها يمكن أن أصير أحد أغنىٰ أغنياء العالم، بعد أن أدفع كل ما ستحكم لك به المحكمة حالة إن رفعت ضدنا شكوىٰ، ونعلم أنك لن تفعلي.

اتسعت عيناه وبرقت بشكل جنوني وحركات مسرحية وأردف بصوت رنان متفاخرا تكاد تقتله نرجسيته:

- يا لعبقريتي المذهلة، سيحار العالم في خلق جائزة يكافؤ بها أعظم ما أضيف إلىٰ الإنسانية عبر تاريخها... إنسان يعشق آلة.... حتىٰ المشاعر يمكن صنعها يا عزيزتي.

كانت الدائرة حولهما اتسعت وامتلأت بالسيارات والبشر والطائرات والحوامات، وبدا أنه بث لكل أرجاء المعمورة، ونفذ كل ما تبقىٰ لديها من قدرة علىٰ مواصلة الحديث أو الاستماع إلىٰ مهاترات ذلك المجنون. فجثت علىٰ ركبتيها متهاوية مرة أخرىٰ ملتفتة يمينا ويسارا تنشد طوقا نجاة أو يقظة من كابوس جثم علىٰ صدرها، ووضعت وجهها بين كفيها تجهش بنشيج مرير، تنتفض له كل ذرة من جسدها، رفعت وجهها إلىٰ السماء تستقبل طلَّها

وهي تناجي في خفوت وضراعة وإعياء وكلال وهون وهوان:

- إلهي .... يا أيها الرحيم القدير، لقد ظننت أنك غفرت لي، تعلم أنني لم أكن مخطئة، وتعلم أني أحيا علىٰ وعدك أن ألقاك وتغمرني بجمال ونعيم قربك، إنك معبودي الذي أودع بي الخلال والخصال التي صيرتني إلىٰ ما أنا عليه، يبدو أن غضبك عليّ أشدُّ وأنكىٰ مما توهمت، إن كان هذا انتقامك مني يا أيها العفوُّ فما أتعسني وما أشقاني وما أضلني، وما أقساه وما أهوله وما أغلظه، لكنني أُعلمك يا أيها القدير أنه ما علىٰ الأرض أشقىٰ مني، ولا أحد أحوج لرحمتك مني، إن كنت حمقاء لا أدرك ولا أعي ما أقدمت عليه، أو ضللت الطريق إليك، فإنك بحكمتك

تعلم صدقي فيما قدمت، ويقيني فيما اعتقدته صوابا، مولاي ومالكي ومليكي وربي، ما كنت مخطئة يا خالقي القدير، وما توهمت أن يتخطفني خلقك كما تتخطف الحدأ فرائسها، لقد هتكوا سترك الذي أحتمي به وخرقوا حجابك الذي أختبأ خلفه، ومزقوا بطانتك التي كنت أتقيهم بها.

نكست رأسها، وصمتت تلتقط أنفاسها اللاهثة العطشىٰ المتلاحقة، وتمسح وجهها المبتل دموعا ومطرا، ثم رفعت إلىٰ السماء كفين مرتعشين يعكسان رجفة أوصالها، وانتفاضة فؤادها، واهتزاز يقينها، واحتراق روحها، وقالت في مناجاة ضارعة خاشعة كسيرة ذليلة:

- أنت أعظم عندي من أن أظن بك انتقاما من ضعيفة وهينة وذليلة مثلي، فما عرفت من صفاتك غير الرحمة والجمال والتجلِّي والعفو والمغفرة، وإلا فكيف وأنت العزيز المتعالي أن يكون لك حقد أو اقتصاص أو عداوة أو تِرَةٌ عند أحد؟ كيف وأنت أنت الذي صقلت الروح وصفَّيْت القلب وهدهدت النفس لأكون مستحقة لتجليك، وحقيقة لتلقي رسائلك، وقديرة لأبصر نورك، وجديرة بأن تتغشاني قبسة من نورك المقدس، أجل عندي من أن تنزل بي هذا العقاب، أو أن تسلِّط عليّ هذه المسوخ، فتنخر في سدِّي الذي خلته مانعا بيني وبينهم، وتهد حصني الذي حسبت أن قوتهم دونه، وأن بأسهم أوْهَىٰ من جدرانه.

ظلت في مناجاتها محاولة استجلاب سكينة لروحها الممزقة، وقلبها الجريح، وعقلهاالمرتج الذي لم يعد قادرا علىٰ استيعاب هول الجحيم الذي تحياه.

كان المطر يتساقط حاملا معه ريحا عاتية تقتلع روحها، وبرقا يشقق السماء ويلقي علىٰ الارض ومضات سريعة، ورعدا يرُجُّ أركانها قبل أن يزلزل أركان الجبال، وكأن الكون يعلن غضبه المحموم تآزرا مع إيلا التي لم تكن تعلم أكان هذا الغضب لها أم عليها؟

رفعت رأسها إلىٰ السماء تستقبل زخات المطر وكأنها تغتسل به من أدران ما مرت به، وتدير عينيها في أطراف الفضاء المترامي بلا نهاية

فلربما عانيت إشارة إلهية، أو سمعت نداءً قدسيًّا، أو رات رحمة الله في شيء من ذلك الخراب الذي يطوقها.

مسحت وجهها بماء المطر المنهمر بغزارة وأبقت عينيها مفتوحتين تستقبلان وطأة المطر، تناثر شعرها مبلولا مترامیا علىٰ وجهها الذي اشتدت حمرته رغم الصقيع الذي يحيطها، ثم بما تبقىٰ لها من أنفاس ومقدرة علىٰ التلفظ صرخت من أعمق أعماقها باسمه:

- عزيز ..... أين انت ياعزيز؟ لقد أخبرتني أنني لن أتألم بعد اليوم، فهل هذا العبث هو حقيقة ما أخبرتني به؟ لقد أوشكت أن أكفر بما عشت

لأجله يا عزيز، هل هذا هو العالم الذي قضيتَ لأجله؟ أهؤلاء هم البشر الذين نحارب لهم؟

ظلت تهزي وتبكي وتتضرع وتتأوه وتصرخ وتتلوىٰ وتنتحب وتعالج آلاما حتىٰ أحست بمن يلفها بمعطفه في حنان جارف ليقيها بردا ينخر عظامها، وندت منها نظرة بطرف عينيها لتتعرف وجه ديفيد وبجواره ابنها.

- هوني علىٰ نفسك يا إيلا.

قالها بحروف مخنوقة بدموعه التي ملأت وجهه وأكمل مفسرا لها:

- لقد شاهدتك علىٰ شاشات البث، العالم كله متسمِّر حول الشاشات التي تعرض مايحدث، فهرعت إليك.

ابتلع ريقه ودموعه قائلا في نشيج مؤلم:

- لقد بحث عنك في كل الدنيا يا إيلا، بحثت عنك لأجثو أمامك طالبا مغفرة لا أستحقها، ورحمة لست أهلا لها، حتىٰ أيستُ، وتملكتني خيبة من العثور عليك، فآليت أن أخلد ذكراك كما لم يخلد أحد قبلك.

لم يكن بها جهد أن تمنحهما ابتسامه لقاء غاب منذ عقد ونصف، لكنها ابتسمت في وهن وكلل، محملة ابتسامتها امتنانا وعرفانا لهما، ولكن العذاب والوجع والألم الذي يطفح من عينيها غلب علىٰ هذا الامتنان والعرفان.

رفعها ديفيد من كتفيها فاستجابت له وقامت وما زالت عيناها تغلي ومعلقتين بالسماء وكأنها

تنتظر وفاء عهد أو تحقق أمل أو بروز آية أو استجابة القدير لتهجدها علىٰ أية صورة، كانت تنظر إلىٰ السماء بلهفة غريق يمني نفسه في أخر أنفاسه بحبل يسقط من السماء لينتشله من موته المحتم، وكانت كلما مرت لحظة اغرورقت عيونها بعبراتها الحارقة الممتزجة بحبات المطر فلا تدري إن نظرت إليها باكية هي أم مبتلة جراء المطر.

كانت السماء كفكفت سيل دموعها المنهمر غير أنها ما زالت محتجبة من فوق غمامة قاتمه تلفها، فغاب عنها قمرها ومصابيحها، وهدأ صرير الريح، غير أن أطراف السماء كانت ترتج بزئير رعدها الذي يجلجل القلوب ويخلع

الأفئدة فتتشقق بشقوق ماتلبث أن تمتلأ نورا من ومضات برقها المتتابع، وتتوالىٰ الرعود وتتعاقب البروق وتتجمع أشعتها وتتكور شيئا فشيئا حولها حتىٰ تتخلق هالة نورانيه فوقها، وأخذت الهالة تتشكل حتىٰ استقامت في صورة عزيز وهو يبتسم ابتسامة مضيئة طغت علىٰ ما حولها من أنوار، وأخذ يدور فوقها وحولها ويقترب ويقترب أكثر وأكثر حتىٰ دنا منها مستمرا في الدوران حولها وحول ديفيد وولدها الذي انتابه ذعر وتغشته رجفة الخوف والقلق علىٰ والديه ففزع إليهما وأحاط أمه واحتضنها فأصبحت بين ديفيد ولدها مطوقة بينهما بينما تطوف حول ثلاثتهم تلك الهاله النورانية لعزيز.

التصق بها ديفيد يخشىٰ أن يفقد زوجته مرة أخرىٰ متمتما في نحيب مؤلم:

- لا ... ليس ثانية يا إيلا، لن أتحمل الفقد مرة أخرىٰ، الأعوام التي مضت قد أتت علىٰ آخر قطرة من صبر لديّ.

وكأنه خشي أن يسحبها عزيز من بين ذراعيه فأحكم معصميه حولها مطوقا لها في قوة .

أضاء المكان وتوهج أكثر وأكثر بكاميرات وفلاشات الملتفين الذين أصيب معظهم ببعض الجمود وكأن أجهزتهم غير مستوعبة لما يحدث، بينما القلة الباقية حجظت عيونهم في ذهول ودهشة وإنكار لما يحدث أمام العالم الذي شملته لحظات صمت تامة ندر أن تتكرر ثانية .

العالم أجمعه يحبس أنفاسه ويضع راحته حول فمه يخشىٰ أن تصدر عنه آهة روعة لما يحدث وهم يشاهدون إيلا وهي تجتهد في مد ذراعيها إلىٰ حيث لاح لها طيف عزيز ويقترب وكلما اقترب زاد ألقه وتوهج نوره وسطوع شمسه، والجمع متسمّريتابع في صمت مهيب هذه اللقطة الروحانية الداهسة الداعسة لمنطلق الآلة المستبد بينهم، هي وحدها تسمع صوت عزيز يأتي شجيا لهيفا رهيفا رائقا مريئا عذبا صافيا ودودا حميما ولوعا:

- هذه آخر آلامك يا إيلا.

فتردد في خفوت هامس خافت وشوش كأنها تخشىٰ أن يتلصص أحدهم علىٰ كلماتها:

- بل كل الآلام تبدلت نعيما ورغدا وغضارة الآن فقط يا عزيز.

يمد يده في انسيابية كضوء، ويبسط أطراف أصابعه في توق وحنين وصبابة ووجد ليلامس أطرافها الممتده إليه في ظمأ وصدىٰ وهيام وحِرة، فتتوهج أصابعهما المتلامسة بألق ألقىٰ علىٰ الوجود سطعة وبريقا إن كان لشيء فليس إلا للجمال المقدس، ولرحمة الإله المطلقة، وكأن الله قد أبان للوجود في لحظة تجلي ورضا قبسا من نوره وجذوة من ضيائه.

يتداخل كفاهما وتتلاصق راحتاهما ويدور عزيز فوقها وحولها وتدور معه إيلا بعد أن أراخ ديفيد وولدها أزرعهما الملتفة حولها وإن ظلا

ملاصقين لها، إلا أنها بدت وكأنها لم تعد واعية لمن حولها أو مدركة بما يدور في تلك الدائرة من الأجساد والآت المتلاحمة والذين بدورهم أخذو يفسحون الدائرة أكثر وأكثر، وعزيز يسحبها رويدا رويدا فينبثق عن جسد إيلا هالة نورانية تشبة هالة عزيز الطائفة حولها وتأخذ في مغادرة جسدها والارتقاء ببطء صمت له الجميع إكبارا وأسرت العيون دهشة وذهولا، وترتفع هالتها شيئا فشيئا وتنفصل عن جسدها الذي عادت زراعا ديفيد للالتفاف حولها مرة أخرىٰ، وتتعلق الأبصار أسيرة لتلك الهالة التي تستمر في صعودها لعزيز ومغادرتها جسد إيلا.

يجذبها عزيز بحّدبٍ ولين وترفق وتلطف، يبتسم فتبتسم له وكأنها منذ لحظات لم تكن تلك المعذبة الملتاعة، تظل هالتها في رحلتها المغادرة لجسدها حتىٰ تنفصل كلية عن جسدها الذي تهاوىٰ بين زراعي ديفيد لحظة اكتمال الانفصال ليتلقىٰ ديفيد جسدها فارغا من روحها فيسنده حتىٰ يسلمها علىٰ الأرض بلا حراك باسمة شفتاها، مشع وجهها، في ذات اللحظة التي يتلقف عزيز هالتها بذراعيه ويضمها فيتعانقان مستمرين في دورانهما فوق الرؤوس في رقصة درويشية أذهلت العقول، وانفرطت لها العيون رهبة، وانفطرت القلوب روعا، وانخلعت الأفئده عجبا، ويبدأن يصعدان

بذات الرقصة الدائرية البهيجة ويزداد طوافهما حول نفسيهما، ويتوهجان وتتداخل أشعه نورهما وتتسارع الدورات ويصعدان أكثر وأكثر وأكثر إلىٰ أعلىٰ ويصعدان ويصعدان ويلتحمان ويمتزجان ويختلطان حتىٰ يصيرا شعاعا متقدا ينطلق بأقصىٰ سرعة كونية إلىٰ حيث تحتضنهما السماء.

ديفيد يطلق صراخ لوعته وكأنه أراد بصرخته أن تلحق ركابهما ولكن ذهب صداها وتفرق في الفضاء الشاسع، ودموعه منهمرة، والملتفون حوله لا يسمعون إلا نهنآته وأنينه وهو يغطي جسدها الساكن الجامد بجسده المنتفض المرتجف.

2

الحصاد

وقف يتطلع مرات عديدة إلىٰ صورته المنعكسة في مرآةٍ عُلِّقت علىٰ باب شقته منذ ربع قرن، حين انتقل من قريته إليها ليمارس حياة المدنية من خلال مجتمع جل أفراده من القرىٰ المتاخمة.

هندم حلته السوداء ورباط عنقه داكن الحمرة، مشّط ما تبقىٰ من شعره المتناثر الشارد علىٰ جانبي رأسه، الملتمع تحت أي ضوء. تأكد أن حذاءه براق وساعته تشير إلىٰ الرابعة عصرًا.

– تبقت ساعتان ويبدأ الحفل.

هكذا حثّ نفسه، فكسىٰ وجهه غيمٌ من الشجن.

وضع هاتفه في جيب سترته الأيسر، وحافظته في جيبه الخلفي، وغمغم قائلًا:

– سأذهب علىٰ الأقدام، فلن تمضي الساعة قبل أن أصل.

التقط نفسًا عميقًا، ثم أردف:

– فرصة لأجالس الأصدقاء قبل مراسم التكريم.

تحركت قدماه بآلية وتؤدة تتناسبان ورحلة عقله إلىٰ أربعين عامًا مرت، وهو منغمس في عمله، لا يكاد يقبض علىٰ ساعة من نهار أو ليل يخلو فيها مع زوجته أو ولديه (عمرو وهند).

– اثنان وأربعون عامًا وأنا أعمل معلمًا عقب حصولي علىٰ التوجيهية، في مدرسة الشهيد (عمي)

الابتدائية بقريتي، ثم ترقيتي لمعلم المرحلة العليا بعد عشر سنوات من حصولي علىٰ الشهادة الجامعية.

شبح ابتسامة اعتزاز تلوح في تقاسيم ملامحه حين غمغم:

– في طول المديرية وعرضها، أنا أقدم المعلمين. كل المناصب رفضتها، أعشق رائحة الفصول والطبشور.

تنتزعه من ذكرياته سيول التحيات التي يتلقاها ممن يمرون به، الجميع يعرفون الأستاذ عثمان، إما معلمًا لهم أو لأبنائهم أو أبناء ذويهم.

انتابه شرود حجبه عن صخب الحياة، لحظة أن أدرك أن اليوم هو آخر عهده بعمله.

آلاف في كل المجالات نهلوا من فيض علمه الزهو يملأ جنباته، فتتفشى ابتسامته لتملأ وجهه.

– حاسب يا بُني، الله يهديك!

قالها منحيًا ليلتقط ذلك الطفل الذي تشبث بساقه مستنجدًا، بدموع غمرت وجهه المترب، فرسمت لوحة بؤس وقهر، وبصوت يقطع نياط القلوب قال:

– أبي سيقتلني، أنجدني من غضبه، أرجوك يا عمي.

وقبل أن يدرك ما يحدث، دفعه شاب نحيف في نهاية عقده الرابع، مجاهدًا للإمساك بذلك الطفل الذي

التصق بقدمه لائذًا بشرفه، مستعصمًا بهيبته من ثورة أبيه الجامحة.

ودون سابق إنذار، سرىٰ غضب عارم في صرخة هادرة انطلقت من حنجرة عثمان، ممسكًا بقُبضة من حديد علىٰ يد ذلك الشاب، قائلًا في صرامة غاضبة:

– يا حرامي يا ابن!...

والتفت ليواجه ذلك اللص الذي يحاول أن ينزع يده الممسكة بحافظة عثمان دون جدوىٰ.

وفجأة تراخت يد اللص وسكتت عن المقاومة لحظة أن التقت عيناهما، فاستسلم لعثمان وهو ينتزع حافظته من يده متمتمًا بالسباب والشتائم.

في حين جثا الرجل محتضنًا صغيره، في صورة أخرىٰ لصدمة عارمة ودهشة رهيبة، وآلاف

التساؤلات تنطق بها عيون المتجمهرين علىٰ أثر الحادث الغامض.

جال ببصره في ردهة نادي المعلمين، وكأنه يتعرف إلىٰ المكان الذي سيقضي فيه الكثير من الساعات في أيامه المقبلة.

دلف إلىٰ قاعة الاحتفال، وكانت تمتلئ عن بكرة أبيها، خاصة وأن صديقه وكيل الوزارة حرص علىٰ تكريمه بنفسه.

لم ينسَ أن رفض عثمان للمنصب كان السبب الذي جعله يعتلي أكبر منصب تعليمي في المديرية. وبعيدًا عن ذلك، فإنه المعلم الذي

حصد كل شهادات وأوسمة التقدير، عرفانًا لإخلاصه وتفانيه، فضلًا عن أقدميته التي لا ينازعه فيها أحد.

جلست زوجته وولداه في مقدمة الصفوف، وكانوا قد أصرّوا علىٰ الخروج قبله لينظروا في أمر الحفل ويراجعوا فقراته.

سار الحفل كأروع ما يكون، وصاحب الحفل زائغ العينين، شارد الفكر؛ فلا تدري أَبسبب ما حدث في الطريق؟ أم من هول الإحالة إلىٰ المعاش؟

كل من ألقىٰ كلمة، أفاض وبسخاء في طرح صور ومشاهد من تاريخ صاحبنا، المكلل بتيجان الشرف

والمجد والعلم، حتىٰ وصلوا إلىٰ فقرة تقديم الهدايا، التي اكتظت بها القائمة.

القاعة تعج بمئات من الأصدقاء والزملاء والمسؤولين والطلاب، وعثمان يتقدم لتسلُّم درع التكريم ووسام الشرف من وكيل الوزارة.

اعتدل ليلقي كلماته، لكنها تعثرت بغُصص حادّة وعَبَرات غلبت سياج التجلّد الذي كان يمنع فرارها، فقفزت لتغرق وجهه وتملأ التجاعيد وتسيل مع سيلها دموع الحاضرين. فلم تعد تُسمع إلاّ آهات الأنين.

فجأة، تسمرت عيناه، وكادتا تقفزان من محجريهما حين أبصرتا ذلك القادم نحوه بثبات، يخترق الجموع، ويتوقف أمامه مبتسمًا.

وصل حيث يقف عثمان، وشفتاه تحملان ابتسامة عجيبة.

وبثقة، مدّ يده والتقط مكبر الصوت من يد عثمان واستدار مواجِهًا الجمهور الذي كان ينتحب لفراق معلمهم.

نظر في الوجوه الواجمة الهلعة، بعينين براقتين كعيني صقر يتأهب للانقضاض، ثم قال ببرود:

– لا أحد منكم – غير واحد – يعرفني.

ثم صوب بصره بحقد دفين نحو عمرو، الذي كان يحدّق فيه مشدوهًا، واستطرد بثبات عجيب:

– وأما الأستاذ عثمان، فقد تعرّف إلىٰ مهنتي اليوم وأتيته لأُكمل التعارف.

صمت هنيهة، وأدار عينيه مرة أخرىٰ يرقب الذهول الذي ارتسم علىٰ كل الوجوه.

ثم استدار إلىٰ عثمان يثقبه بنظرة طويلة صامتة. وعمّ صمت القبور علىٰ الجمع، الذي كان قبل لحظات يضج بالتهليل والتصفيق والهتاف والأنين.

ابتلع ريقه، وعلىٰ وجهه ابتسامة خلطت بين السخرية والقهر في مزيج عجيب، ثم استطرد قائلًا:

– قطعًا أخبركم أستاذنا عثمان عن اللص الذي حاول سرقته أثناء قدومه إليكم. ذلكم اللص... هو أنا.

ترك القاعة لحظات تستوعب ما يقول، ثم أردف في هدوء عجيب:

– لم يكن لي علم أن اليوم تكريمٌ له.

ابتلع ريقه ثانية، ثم قال:

– لكنني تبعته حتىٰ دخل إلىٰ هنا، وعلمت من أفراد الأمن خارج النادي.

ثم التفت موجهًا حديثه إلىٰ عثمان:

– أستاذ عثمان، أقدم لك اسمي مسعود جابر الدسوقي.

مجلد من التساؤلات طَفِح علىٰ وجه عثمان.

– لا تُرهق نفسك، فلن تذكر اسمي، فأنا من الذين لا تُذكر أسماؤهم.

جفف عرقًا وهميًا براحة يده، ثم تابع:

– ابنك، الدكتور عمرو، يعرفني جيدًا.

قالها بمرارة ملأت حروف كلماته، وأردف متهكمًا:

– الدكتور عمرو... ياااا للسخرية.

ثم ارتفع صوته، وقال:

– عد معي يا أستاذي، إلىٰ أقل من ثلاثين عامًا...

هل تذكر صديقك الذي شكا إليك أن "الكوتشينة" الخاصة بالمعلمين سُرقت من غرفة إقامتهم بالمدرسة؟ هل تذكر ما فعلت؟

رفع يسراه قائلًا:

– لقد رفعت راية الطوارئ، وجمعت جنودك وجلت أرجاء الفصول تفتّش عن ضالتك في أجساد الطلاب وأبعاضهم قبل حقائبهم.

وامتعض وجهه، وصاح في وجه عثمان الذي انتابته حالة من الجمود والشرود:

– هل تذكر صراخ الفتيات حين كانت يداك تنقّب في أبعاضهن؟ وهل تذكر كيف كنت موتورًا تفتش عن ثأرك حتىٰ عثرت علىٰ ضالتك في حقيبتي؟

ثم قال بكراهية متدفقة:

– لا بد أنك تذكرت، لكن دعنا نخبر السادة الذين جاءوا لتكريمك ما حدث بعد ذلك...

قال مسعود:

– جرّرتني من رأسي، ومرّرتني علىٰ سبعة عشر فصلًا – هي عدد فصول المدرسة المسماة باسم عمّك الشهيد

– ثم تسألني أمام تلاميذ كل فصل

" – انت إيه يا مسعود؟

– فأجيبك فورًا

" – أنا مسعود الحرامي".

– وتسألني:

" – وسرقت إيه يا مسعود؟"

– فأقول:

" – سرقت الكوتشينة بتاعة المدرسين".

التمعت عينا مسعود، واكتسىٰ وجهه بزرقة عجيبة وتهدّج صوته وهو يكمل:

– كنت أجيبك علىٰ الفور، لأنني حين تلعثمت أمام أول الفصول، لم يسلم موضع في جسدي من ركلة أو لطمة أو ضربة أو صفعة أو بصقة!

هل تذكر حين طلبت من كل تلميذ أن يبصق في وجهي؟

ثم جمعت المدرسة كلها في الفناء، وخطبت

خطبتك "البتراء العصماء"، وأشدت برحمتك لأنك لم تقطع يدي جزاءً علىٰ ما ارتكبته!

انسابت دمعة حارّة من عينيه، فمسحها بقوة، وقال بنبرات متقطعة متهدجة:

– لست أذكر عدد العِصي التي تكسّرت علىٰ جسدي، ولا أعلم:

أأكملت جلدك بعد إغمائي، أم منعك الآخرون؟

صمت ليتمالك نفسه، ثم أردف:

– وصدر قرار "الرحمة" بفصلي نهائيًا من المدرسة.

تلاحقت أنفاسه، ورشَح العرق من ياقة قميصه الأسود.

ورمق عثمان بنظرة حقد، كأنه يربّي ذلك الحقد منذ تلك الحادثة، ولم تهتز منه شعرة، رغم ارتعاش ذقن عثمان، وارتجاف أصابعه، ثم تهاويه علىٰ الكرسي يخفي وجهه بين كفيه.

تابع مسعود بصوت هادئ... لكنه قاتل:

– لفظني أهلي، وأسلمت للطريق قدمي، يقتات منهما الجلد واللحم، وينخر العظم، حتىٰ صرتُ ذلك اللص الذي قابلك اليوم...

ثم قهقه ساخرًا وقال:

– ولم أستطع حتىٰ أن أسرق منك اليوم شيئًا! لا أعلم لماذا تملّكتني رغبة في أن أتبعك...

لكنني أحسست أن عذابات العمر التي عانيتها، لا تُضاهي لحظة القهر حين رأيت عينيك، اللتين تقع

الصخور دونهما قسوة.

كل ما أردته... أن أبثّك بعض المرارة التي صارت تشاطرني الفراش كل ليلة، حتىٰ أمسيتُ لا أشعر بوجع، أو ألم، أو معاناة، وكنت أتساءل:

– هل يؤلم البحر أن تلقي به أطنانًا من الملح؟

يصمت ويجاهد بكاءه، ثم يكمل:

– هل تعلم يا "معلّم الأجيال"، أنني لم أكن السارق لكنزكم الثمين؟

ثم صوّب نظره نحو عمرو، قائلًا ببساطة:

– لقد كان السارق هو ولدك الطبيب، وكان صديقي المقرّب، ففديته بتضحية طفولية ساذجة.

قام عمرو وصرخ فيه:

– أما تستحي من شيخوخته؟ ستقضي عليه!

ردّ مسعود بسخرية لاذعة:

– تبًّا لك وله! ما أراك إلا متنطعًا، تجاهد محاولًا ستر خيبتك، وطمس حقيقتك.

نعم يا أستاذ عثمان، إن ابنك هو السارق...

– إن كان يحق لنا أن نُطلق "لفظ السارق" علىٰ طفلٍ أخذ كوتشينة!

قاطعه عمرو، متوسلًا:

– كفىٰ يا مسعود... ستقضي عليه... الرحمة!!!

الحضور صامتون كالأموات... أنفاسهم فقط تشهد أنهم ما زالوا أحياء.

وصوت مسعود يتردد ببرودة قاسية:

– وهل تحق الرحمة لهذا العجوز، الذي سيؤول إلىٰ القبر عما قريب؟

أم كانت واجبة لذلك الطفل، الذي كان يتحسس دروب الحياة، وينقش آماله علىٰ وجه القمر؟

وببساطة...

غادر القاعة، كما أتىٰ.

-3-

المسخ

وقفتُ علىٰ الشاطئ بعد منتصف الليل بساعتين أتأمّل ذلك المهيب القدير، الذي نتجرّد له من الثياب اعترافًا بسطوته، وإذعانًا لهيبته. الأمواج تتتابع بدقة وانتظام، وتترامىٰ منهكة لتُعلن بشهقاتها المكتومة علىٰ الرمال وصولَها إلىٰ مثواها الأخير بعد سفرها في طول البحر وعرضه لأيام أو شهور... لا أحد يدري.

السماء والبحر يلتقيان في نقطةٍ ما، بعيدة أو قريبة لا أدري.

لكنهما يتداخلان ويندمجان وينسجمان، فلا تكاد تتبيّن أهي السماء التي تبخّرت، أم البحر الذي تسامىٰ؟

غاب صديقي القمر – وهذا جيد – لا أريده الليلة وجميلٌ أنه يختبئ خلف الغيوم القاتمة الكاحلة.

لامستُ المياهَ بقدمي، فسرت قشعريرة انتفض لها جسدي، وأخذتني لأعمق أعماق البحر، حيث لم يصل إنسان

تساءلت: كيف يكون الضغط هناك؟

تذكرتُ كيف أن غواصة ألمانية في أحد أفلام الحرب العالمية تطايرت مساميرها كريشاتٍ في ريحٍ عاصف، حين تجاوزت حدود الضغط المسموح به.

كلّ ذلك بعضٌ مما أعانيه.

الساعةُ أدركت كيف يكون ذلك الضغط... أستشعره في كُلِّي، في خلايا المخ والصدر... حتىٰ

خلايا أظافري التي أهملتها منذ شهرين، فباتت كأظافر نمرٍ هَرِم.

شهران مرّا لم أذق طعم النوم، إلا في إغماءاتٍ متباعدة، يفتعلها جسدي تمرّدًا علىٰ تمرّدي وتعويضًا لما حرمته، ومقاومةً للجنون الذي كاد يفتك بي

شهران منذ شاهدني أبي وأنا أُقبّل ابن أخيه، الذي عشقته خلف إحدىٰ شجرات النبق

كنا محمومين في أول قبلة عشق لعاشقَين استثنائيَّين في الحياة.

عوض، ابن عمي، يكبرني بأربع سنوات. قالوا لي إنه أول من زفّ لأبي بشرىٰ ولادتي، هرول إليه صارخًا بفرحة:

– عمي، عمي، مبروك يا عمي! طفل جميل جدًّا إنه يشبهك للغاية.

لم تُرَ الفرحة على وجه أبي منذ زواجه قبل عشر سنوات، أنجب فيها بناته الخمس. ففرح بهذا الولد، ومنح عوض عشرَ جنيهات، أظنها كانت سرَّ رعايته وملاحقته لي بعد ذلك.

وصل الماء إلى منتصف أفخاذي، فتجرّعتُ ريقًا علقمًا حين تذكّرت الاسم الذي أُطلِق عليّ: عِصمت.

ما كرهت شيئًا في حياتي مثل كراهيتي لاسمي. في ذلك اليوم المشؤوم، مُدّت الموائد، ودُعي جميع أفراد العائلة في نجع العجايصة بقنا، ونُحرت الخراف، وأُطلقت الأعيرة النارية ابتهاجًا بذلك المولود، وتفاؤلًا بأنه الفارس المنتظر الذي

سيشفي غليل أبيه الموتور، من قاتل أخيه المتحصّن خلف قوة عائلته، والذي قتل والد عوض.

يا لحظي التعس الذي جُنّدت فيه منذ أولىٰ ساعاتي لأكون الآلة التي يُثأر بها في حربٍ لا ناقة لي فيها ولا جمل.

معلّمي في السلاح كان عوض.

أراني كيف أمسكه، وكيف أُصوّبه وأنظّفه، حتىٰ صرتُ قنّاصًا قبل أن أبلغ الثانية عشرة من عمري القصير.

علّمني فنون التحطيب والمصارعة.

كنت أكره ذلك، لكنني كنت أعشق التواجد مع عوض دائمًا، ولم أبرع في شيء منها إلا لنيل

إعجابه واستحسانه، باستثناء المصارعة، التي لم يساعدني جسدي النحيل علىٰ التميّز فيها، رغم محاولاتي المستميتة.

ورغم تفوّقي الهائل في الدراسة، إلا أن أمي قطعتني عنها عقب اجتماعها مع الأخصائية الاجتماعية، إثر استدعائها وليّ أمري لأمرٍ لم أعلمه إلا بعد سنوات.
كنتُ في الصف الرابع.

أذكر حين اقتحمت أمي الفصل، وأمسكت بمعصمي، وجرّتني خارجه وسط دهشة التلاميذ والمعلم، دون أن أُلملم حاجياتي المدرسية.
بكيتُ، فقالت:

–لا تبكِ يا ولدي، فلن تكون بحاجة إليها بعد اليوم.

تلقّاني عوض يومها – وكان لا يزال في الصف الأول الإعدادي – برفق وحنان بالغين.

لم أدرك ساعتها كنه الأمر.

ومنذ ذلك اليوم، لم أرَ ابتسامة أمي مرة أخرىٰ. أصرّت أن تحشرني في ملابس فضفاضة كثيرة، وألزمتني دائمًا بأن أأتزر بشال تلفّه حول جسدي بقوة، من أسفل إبطي حتىٰ أسفل بطني، وتردّد في كل ليلة:

– هكذا تكون رجلًا.

قضيت وقتًا طويلًا حتىٰ أتأقلم مع ذلك الإزار ويصير جزءًا من جسدي لا ينفكّ عني.

بلغ الماء أسفل بطني، دافئًا رغم برودة المناخ. أتذكّر سبب ذلك... "الماء يفقد الحرارة ببطء." يا لبراءة تلك الأيام وروعتها.

اصطحبني عوض في مهمة ثأرية لقتل أحد أبناء قاتل عمّي، وكنت قد أتممت عامي السادس عشر. تخفّينا في الحقول يومين، نرصد تحركات حمدان الذي كان تلميذًا في صفي.

لم أحفل بذلك كثيرًا، فعوض يراه يستحق الموت.

ها هو الآن يرجع من أحد الموالد في قرية مجاورة صباحًا، برفقة ثلاثة من أصدقائه.

ثبّت عوض بندقيته على أحد الفروع القوية، بينما حملتُ بندقيتي وصوّبتُ.

استجمع كلٌّ منّا انتباهه وتركيزه، وأطلقنا النار في آنٍ واحد

أصابه في سويداء قلبه، وزيّنت جبهته بثقبٍ كبير بين عينيه.

هرع زملاؤه، وأخذ اثنان منهم يطلقون الأعيرة النارية بغزارة، في كل اتجاه، بعشوائية وجنون، بينما لذنا نحن بالفرار عبر طريقٍ حدّدناه مسبقًا.

لم نذق طعامًا منذ بدأنا المهمة، سوىٰ بعض خضروات المزارع التي كنّا نختبئ بها، فخارت قواي علىٰ مشارف النجع الذي يترقبنا أهله علىٰ جمر الانتظار، ليقيموا احتفالات النصر المبين.

–تعبتُ يا عوض...

قلتُها وأنا أتهاوىٰ أرضًا، فتلقّاني من ظهري بين يديه، ثم جلس مفترشًا الأرض، واضعًا رأسي علىٰ ركبتيه.

يا للروعة، يا للدفء اللذين غمراني في تلك اللحظة.

كم حلمتُ أن يحملني بين ذراعيه كعصفورٍ مبتلّ يمنحني حنانًا لم أحظَ به يومًا، ولا رأيت له انعكاسًا في حياتي، إلا في أحلام كنتُ أئدها قبل اكتمالها.

ليته يُطفئ أتون الأشواق التي استعرت بفؤادي، منذ تحرّكت نبضات روحي هيامًا به، فأدركتُ معنىٰ الحياة حين أحببته.

يمسح بيده – التي كانت قبل ساعات كالفولاذ تقبض علىٰ البندقية – عرق وجهي، فأشعر بها وكأنما نُسجت من ورق الورد، وتعطّرت بشذاه يمرّر أصابعه علىٰ شفتيّ المرتعشتين، الراجيتين أن يلتهمهما.

– ما بك يا عصمت؟

قالها في خفوتٍ حانٍ.

ثم أضاف في صلابة:

- كن رجلًا.

استنشق ما حوله من الهواء، قائلًا بزهو وتفاخر:

– اليوم سنخلد إلىٰ النوم. اليوم فقط تنطفئ أتون النيران التي لم تبرحنا منذ رأينا شمس الحياة.

ثم صمت، وقال بشرود:

– نعم... الحياة التي لم نحياها قبل اليوم.

كنتُ في عالمٍ آخر، غير عالمه الذي يتحدّث عنه. لم يتركني لذلك العالم، بل هزّني في عنف، قائلًا:

–نحن اليوم برهَنّا للجميع أننا رجال. نحن أصغر من حمل السلاح ونال ثأره في قريتنا. هل تعي ذلك يا عصمت؟

– هل تعي، يا ابن عمي، أننا قتلنا ابن قاتل أبي والمتسبب في شلل يد أبيك حين علم بخبر قتل أخيه؟

صوته كان يتضاءل ويتلاشىٰ...

استسلمتُ للماء ثانية...

كنتُ أجيد السباحة – عوض علّمني إياها أيضًا فاستلقيت علىٰ ظهري، أسترجع تلك الأحاسيس التي تنهش وجداني، فتوشك أن تفتك بي أو تدفعني إلىٰ بؤرة الجنون، حين قال لي :كن رجلاً.

بحثت عن صديقي القمر، الذي ما زال مختبئًا كأنه يرفض رؤيتي.

تركتُ الأمواج تحملني، وتعبر بي حدود علامات الأمان للسابحين.

قضيتُ العمر أصارع ذاتي، أنهش حشاياي، أدمي صدري كل ليلة بأظافر الحيرة ومخالب العذابات. أقتل رغباتي العجيبة الشاذة، منذ أدركتُ ما هو العشق.

شيطاني القزم لم ينتصب مرة، ولا اجتاحتني ما يجتاح أمثالي من رغبات.

حتىٰ ليلة أن احتلمت... لم تكن فتاة. بل كان... كان...

يا للرجولة التي مسختني بها أمي

منذ أن قابلت أخصائية المدرسة، لا تناديني إلا بـ:

– يا راجلي... يا سبعي...

عوض أسرني...

عشقته... أحببته...

لا يوجد في الكون رجلٌ سواه.

يا لمصيبتي! ويا للعذاب الذي ألقي فوق رأسي! انتزعتُ نفسي دفعةً واحدة من علىٰ قدميه، ونظرت إليه نظرةً تحمل عذاب ووجع العمر. نظرةٌ تحمل رجاء العاشقين، وخوف التعساء المعذّبين، وقهر السنين الكئيبة وكبتها.

أخذتني الأمواج بعيدًا، فلم أعد أتبين أضواء الشاطئ إلا من مصباحٍ أو مصباحين... لا أدري، ربما أصابت عيني غشاوة.

اجتاحتني رغبةٌ في الولوج إلىٰ الأعماق، فاستدرتُ أسبح بكل قوتي، أُقاوم الأمواج وأعاند التيار. ظللتُ أسبح، لا أشعر بالإجهاد، ولا أدري كم قطعت من الأمتار بعيدًا عن الشاطئ.

انقضضتُ علىٰ رأسه وطوّقته بين ذراعي، ورحتُ أُطفئ لهيب أشواقي علىٰ شفتيه

أيقظتني من نشوتي استجابته لي... مبادلته قبلاتي والتهمُ الشفاه.

سحبتُ شفتي من بين شفتيه، والرأس مطرقة والعين دامعة، ودمي يفور كزيتٍ اشتدت تحته النيران وجسدي ينتفض كمَن وضعوه علىٰ تيار كهربائي في زنزانة تعذيب.

كنتُ كنَاقةٍ ناءت بحملها أعوامًا، تدور في بيداء قاحلة.

آن لها أن تحط رحالها.

تهدّج صوتي، وتقطّع حين غمغمتُ في انكسارٍ وهوان:

- أتدري أنني... أنني... ل... لس... لست...

احتضنني بكامل جسده حتىٰ شعرتُ بانصهارنا وقاطعني قائلًا، في ما يشبه الانهيار:

- نعم، أعلم... أعلم كل شيء.

انتفضنا بكاءً وألمًا، وغاب وعينا عن كل ما حولنا خلف قبلات العشق المحمومة وزفرات الاشتياق.

تسمّرنا إذ ألفينا أبي علىٰ مقربةٍ منا، يفغر فاه في عجب، واتّسعت حدقتا عينيه في استنكار، حتىٰ خُيّل إليّ أنني أسمع طقطقة شعر رأسه شيبًا وذهولًا.

تحشرجت الكلمات في حلقه، فلوّح بيده السليمة وحرك رأسه بحركاتٍ لم أعرف أكانت إشارة سؤال أم تنفيسًا عن صدمةٍ تعجز الكلمات عن احتوائها.

قاطعتُ تلك الإشارة البلهاء، وصرخت وأنا أتقهقر:

–نعم، يا أبي! ما تراه عيناك ليس كابوسًا! إنها الحقيقة التي لم أملك منها مفرا طوال سنين العمر الكسيح.

لقد مسختني أمي، وأنتَ ارتضيتَ خداعها لك وصدّقتَ أنني صبي!

رغم أنني كنت أرىٰ في عينيك أنك تعلم الحقيقة جيدًا، وأنني لستُ رجلًا!

ثم صرختُ بكل ما في حنجرتي من قوة:

– ولا بنتًا!

- لستُ رجلًا... ولا بنتًا

نعم، يا أبي، أنا مجرد مسخ

!مسخٌ مشوَّه، مرفوض من الجميع... يا أبي!

تراجعتُ إلىٰ الخلف، وأنا أرىٰ عينيه المتقدتين بشرر الجحيم، وغمغمتُ:

– أعلم أنك ستقتلني الآن، وتروي للجميع أنني قُتلتُ أثناء أخذي بالثأر...

ثم صرخت بكل عنفواني:

– أخرج مسدسك، يا أبي، وأطلق النار علىٰ قلبي كي يهدأ قلبك!

افعلها!

وسأكون ممتنة لك...

أقلّها سترحمني من عذاباتي السرمدية!

انهرتُ باكية، أخفي وجهي النحيل بكفّيّ الصغيرين.

وحاول أبي أن يمسك قبضة مسدسه، إلا أن عوض دفعه أرضًا، ثم خطفني من معصمي، وأطلقنا أقدامنا للريح، نسابقها، حتىٰ غبنا عن كل العيون داخل مزارع القصب.

خارت قواي من السباحة التي دامت طويلًا لا أعلم عدد ساعاتها وأنا أتذكّر ذلك الحدث... أنّت كل خلية تصل إليها الدماء في جسدي المنهك.

توقّفت قليلًا حتىٰ أسترجع أنفاسي المتلاحقة.

هدأت، فانتفضت من البرودة القارصة التي وخزت عظامي.

أخذني عوض إلىٰ الإسكندرية، كان يأتيها كثيرًا لبعض الأقرباء.

غاب أيامًا، ثم عاد.

كنتُ قد تحرّرت من ذلك الإزار الذي قيّدتني به أمي طوال ثمانية أعوام.

- كيف عرفت، يا عوض؟

احتضنني وبكىٰ، فسالت دمعاته علىٰ رقبتي ملتهبة. مسحتُ شعر رأسه في حنانٍ لم أمارسه من قبل، ورقةٍ أحببتُها في نفسي، وأجهشتُ ببكاءٍ مرير. ضممته بكل ذراتي، لأُخبّئ فيه ضعفي وانكساري وأبثّه مخاوفي دونما حديث بيننا، وكذلك فعل،

حتىٰ بتنا أشبه بيَتيمين التقيا، وقد فقد كل منهما عائلته لتوّه في حرب شعواء، فصارا يضمان أبعاضهما لبعضهما البعض، لعلهما ينجوان من ذلك الخراب الممتد عبر الأفق في كل الجهات.

غمرني بقبلاته، وكذلك فعلت

تذوّق كلٌّ منّا دموع الآخر المريرة، حتىٰ سقطتُ من فرط الضعف والهزال الذي تمكّن مني جراء امتناعي عن الطعام لأيام لا أذكرها.

ترتعد أوصالي من برودة الطقس، ولم أعد قادرة... ويحي!

حتىٰ الضمائر لم أعد أعلم كيف أستخدمها أأستعمل ضمير المذكر الذي حملته طيلة عمري؟

أم ضمير المؤنث، الذي يقبع في كهوفي، ويقتلني في الليلة ألف مرة ومرة، كلما تذكّرتُ هويتي؟

تُبًّا! حتىٰ اسمي حمل الضميرين معًا، كأنما يسخر القدر من الجميع!

ما زال صديقي القمر غائبًا!

ترتفع الأمواج من حولي كجبالٍ ثائرة، وتنهال من كل حدب وصوب، موهِنةً كل قدرة لدي علىٰ المقاومة

تغمرني المياه، فأغوص، وأضرب بيدي في محاولات مستميتة لالتقاط أنفاسي

أطفو قليلًا، وأسعل بشدة لأطرد المياه من جوفي فتعود الروح، بعد أن فارقتني للحظات.

تركت ورقة لعوض، كتبت فيها:

انتظرني عند الشاطئ، خلف القلعة.

لم أحتمل فكرة الارتباط، والعار الذي سيلحق بنا وبجميع عائلتنا إن نحن فعلنا.

ولم أتقبّل فكرة الفرار والبعد، ففي كل مكان سأجد أمي التي مسختني، وأبي الرافض، وسأجد المجتمع الكافر بي في كل بقعة أطؤها.

أمسيت كلقيطة في زمن الجاهلية، لا قيمة لحياتها ولا كفّارة لذنبها إلا الموت.

غمرتني المياه مرة أخرىٰ فاستسلمت لها وبركان ينفجر بداخلىٰ يلقي حمما من التساؤلات وأنا أعاني آلآم الموت:

ترىٰ من المخطأ؟...

هل أخطأ أبي حين قذفني شهوة في رحم أمي...؟

أم أخطأت أمي حين مسخت هويتني وشوهت حقيقتي ؟...

أم هل أخطأ القدير حين أرادني علىٰ هذه الصورة..

تتعاظم حمم التساؤلات.....

أم هل أخطأ القدير حين أرادني علىٰ هذه الصورة في هذا المجتمع الذي تعتريه كل النقائص والنقائض ؟؟...

انزعجت من الفكرة فتجمعت كل قوة بجسدىٰ في يدي حين ضربت المياه في يأس لأطفو علىٰ سطح الماء مرة أخرىٰ لأجد صديقي ينظر إلي من خلف

الغيوم التي تتقاطر منها حبات المطر، فتسقط على وجهي كأنها دمعات صديقي الذي لم أجده حزينا كاليوم رغم ابتسامته الوادعة التي أخبرني من خلالها رسالة سلام لروحي المعذبة في شتات الليالي:

طيبي نفسا ياصديقتي القدير لا يخطأ القدير لا يخطأ.

ترددت كثيرا حتى ملأتني الرسالة وتوغلت في شراييني

هنا استسلمت لقدري راضية النفس مبتسمة.

للمرة الأولى تغمرني سعادة وفرحة.

القدير يعلم بأمري.

القدير سيعوضني.

القدير سيحنو علي.

شعور لم يراودني من أب رافض وأم ماسخة وحبيب لم أهنا به، ومجتمع يدعي تدينا ويرفض قدر القدير.

في الصباح يجلس الأب علىٰ الشاطئ وبجواره عوض الذي أبلغ عمه بفحوىٰ الرسالة.

جلسا طويلا لم يتحركا قيد أنملة ولم ينبسا ببنت شفة حتىٰ سمعا صراخ أحد الجالسين علىٰ مقربة منهم:

غريق ... هناك غريق ....

أسرع أحدهم وجلب الجثة إلىٰ االشاطئ وقام إليها كل من عوض وعمه.

تساقط دمع عوض قهرا ليلامس وجهها الذي مازال يحمل ابتسامة الرضا الأخيرة.

نظر المنقذ إلىٰ الأب متسائلا:

هل تعرف هذه الجثة ؟

نعم إنه ولدي عصمت.

تعجب السائل ونقل بصره بين الجثة والأب في حيرة بالغة ثم قال بحسم:

لكنها فتاة يا والدي!!

رد عليه الأب بحسم أيضا:

إذن فلست أبا لها.

ثم استدار مغادرا المكان تاركا عوض محتضنا حبيبته.

-4-

الياسمين المذبوح

وقف أمام المرأة يصفف ما تبقىٰ من شعره، ويلقي نظرة أخيرة علىٰ جلبابه الفلاحي المنسوج من خيط الكتان وعباءته اللامعة المقتطعة من سماء بلا نجوم والمسدلة علىٰ كتفيه، مانحة إياه جلالاً وهيبة. ثم استدار ليلتقط حذاءه الأسود اللامع، مستكملاً أناقته التي يحرص عليها كما يحرص علىٰ ما هو ثمين.

التقط حقيبة يده السوداء، وأودع فيها أوراقه وأدواته، متحسّسًا قلمه الحبر المفضل لديه في توثيق عقود الزواج التي يكتبها بخط نسخ واضح بتؤدة وأناة.

كان يعتقد أن قسيمة الزواج مقدسة، يجب ألا تكتب بما يُكتب به بقية العقود، وإلا فلماذا أطلقوا اسم "قسيمة" (من القسم)؟ ولماذا كانت وزارة العدل هي المنوط بها هذه العقود؟ وزعم للمتسائلين حول سبب استخدامه لقلم الحبر أن أوتار يده اليمنىٰ تؤلمه حين يستخدم قلماً يجبره علىٰ الضغط عليه أثناء الكتابة.

لم يخالف مرة قوانين عمله، ولم يقم بمخالفة شروط العقد منذ تولىٰ عمله قبل خمسة عشر عامًا.

خرج متجهًا إلىٰ بيت من بيوت ذوي الثراء والأبهة إرثًا من أجدادهم البشوات إبان الحكم الملكي.

أهلاً أهلاً يا شيخ جمعة...

بترحاب وحفاوة بالغين، أدخله قاسم شقيق العروس، وكان قد تجاوز الأربعين بقليل، بنيانه قوي، ذو صوت أجش، وقسمات حادة تنم عن غلظة وصلابة، يشتهر بها أهل تلك العائلة التي تقتات من تاريخ تكاد تنسخه الأيام من الأذهان، ولا يزالون يرمّمون ما تهاوىٰ من مجدهم الغابر.

توجه مباشرة إلىٰ المقعد الذي أُعد له خلف منضدة مستديرة - يعرفها جيدًا - ليباشر عمله عليها.

هل تعلم يا شيخ جمعة أن هذه المنضدة عقد عليها قران جدي الباشا؟

نظر إليه بعينين ساخرتين متناقضتين مع صوته الذي حرص أن يكون طبيعيًا، وقال بصوت هادئ وواثق:

نعم أعلم، فقد أخبرني والدك ذلك يوم قرانك ويوم قران أختك وعمتك فوزية.

كتم الجميع ابتسامة سخرية.

الشيخ جمعة لم يكن من مهاجمي تلك العائلة، وإن كان لا يستسيغ أساليبهم الممجوجة.

أخرج أدواته وأوراقه في وقار، وشرع في لصق صور العريسين علىٰ القسيمة وتدوين البيانات بمهارة ودقة وتؤدة.

نظر إلىٰ صورة العريس، واستشعر من ملامحه ميوعة ومكرًا، رغم الطفولية الساذجة التي تظهر في عينيه وحول شفتيه.

نقل بصره من الصورة إلىٰ صاحبها قائلاً:

مبارك يا مهندس إسلام، أراك خجلاً لم تتحدث منذ دخولي.

بصوت مضطرب رد قائلاً:

بارك الله فيك يا شيخ جمعة.

أنت عريس الليلة، فاهنأ كما تحب.

تضجّر وجهه بحمرة، متمتماً:

إن شاء الله يا شيخ جمعة.

حديث مقتضب استشف منه سذاجة صاحبه وضعف شخصيته وطفولة تجاربه، وتعجب كيف لهذه الشخصية المهترئة أن تتزوج من تلك الفتاة التي يعرفها جيدًا.

تذكر ذلك اليوم الذي أهدىٰ لها قلماً لتفوقها في الصف الرابع، وقت أن كان يعمل بالتعليم وقبل تقلده عمله كمأذون للقرية.

المشروبات الباردة والساخنة تتوالىٰ في كؤوس وفناجين عتيقة، والشيخ جمعة لا يتناول منها متعللاً بأن لديه ما يمنعه. وتحت وطأة الإلحاح المتكرر، طلب فنجان قهوة.

صوت الزغاريد تصم الآذان، والنساء تعلو أصواتهن بأغنيات شعبية شهيرة، والأطفال يتقافزون كمسبحة انفرطت حباتها علىٰ البلاط فعسُر علىٰ أحد جمعها.

كلف اثنين من الحضور لأخذ الوكالة من العروس لأخيها، فقاما متجهين إلىٰ حجرة العروس الواقعة

في آخر الممر الطويل للبيت، والذي تتوزع على جانبيه غرف عديدة.

تغيّبا أكثر من المعتاد، وبطرفه لمح حديثًا جانبيًا هامسًا بين قاسم ووالد إسلام، فأدرك على الفور من واقع خبراته أن ثمة أمرًا غير طبيعي يحدث. وكان يعلم يقينًا أن العروس أُرغمت على الزواج من هذا المسخ، لا يمكن أن توافق هذه الفتاة التي فاقت جميع أترابها حتى استطاعت أن تلتحق كمترجمة بإحدى القنوات الفضائية الشهيرة عقب تخرجها من كلية الألسن.

يذكرها جيدًا، كانت جذوة متقدة لا يهدأ لها بال في الفصل إلا حين يكلفها بأدوار قيادية، ذات ذكاء لامع حاد وخفة محببة تأسر من الوهلة الأولى.

يتعجب كيف لم تتزوج إلىٰ الآن وعمرها تجاوز الخامسة والعشرين، رغم جمالها ونسبها ومنصبها.

برز علىٰ باب حجرة الاستقبال من كلفا لأخذ الوكالة، وعلىٰ وجهيهما تطفح علامات الخيبة، وقد تدلىٰ شارب أحدهما ليمنحه مظهرًا يصلح مادة للسخرية والهزل.

تعلقت العيون بهما متسائلة في صمت وحيرة، بلغا ذروتهما لدىٰ الجميع حين ظهرت خلفهما العروس، تقف في ثبات، وعيناها تشعان ببريق وعلىٰ شفتيها شبح ابتسامة تحمل الكثير.

تقدمت لتقف أمام الجمع وتدير مقلتيها في جميع الأرجاء. هي ريانة القد، نجلاء العينين، مقوسة الأهداب، مزججة الحواجب، سهلة الخدين تشوبهما حمرة ممتزجة ببياضها فتكاد ترىٰ الدماء

تجري في العروق صفاءً ونقاءً وسحرًا، قرمزية الشفتين علىٰ شكل قوس كيوبيد، ترتدي فستانًا أزرق حريري ملائكي، أحكم علىٰ صدرها بأربطة أنيقة خلف ظهرها لتمنع تمرد نهديها المرمرين، وينساب علىٰ خصر يكاد يعاني مجاعة، ثم ينسدل متسعًا ليخفي عن الناظرين - إلا لمتفحص - أدرافًا لا تنوء كثيرًا بحملها.

يفتر ثغرها الأقحواني عن ابتسامة - رغم برودها - إلا أنها بدت كأميرة من عالم الأساطير، أجلّت تناياها المنشبة المفلجة البراتقة.

استقرت نظراتها عند الشيخ جمعة، واتجهت بخطوات ثابتة واثقة إلىٰ حيث يجلس.

فغمغم في ذاته:

ليلة أخرىٰ من الليالي السوداء.

سحبت كرسي أحد الجالسين الذي انتفض واقفًا متخليًا عنه بمجرد أن لمسته، ووضعته قبالة الشيخ وجلست مصوبة عينيها نحوه قائلة بصوت رقيق رغم الشجن الدفين:

كيف حالك يا أستاذ جمعة؟

كان يعلم أن ما سيجري من أحداث في هذه الليلة سيكون لعكة في أفواه الجميع. سيتناقلونه بين ألسنتهم مثل السير الشعبية، وسيضع كل بصمته من خلال خيالهم الذي لا يتسع إلا لتلك الأمور، لذلك فقد حرص علىٰ أن تكون كلماته متزنة، رصينة، مقتضبة تصيب الهدف بأقل قدر من الحروف، فرد مبتسمًا:

لم أعد أستاذًا يا ياسمين.

ما عرفتك غير معلمي.

ها أنتِ أصبحت تعرفينني بصورة أخرىٰ.

صمتت الحجرة، فلا تكاد تسمع إلا أنفاسًا متلاحقة من دهشة ما يرون، وهو أمر لم يحدث من قبل، وبدا كمشهد سينمائي عجيب.

تابع الجميع العروس وهي تأخذ شهيقًا وصل لأعماق صدرها، وكأنها تستجمع شجاعتها لتقول في حزم:

لماذا بعثت لي بهذين الرجلين يا أستاذ جمعة؟

رد مقتضبًا:

لأخذ الوكالة.

قالتها دون أن ينظر إليها متظاهرًا باستكمال عمله.

بهدوء وثبات مدت يدها والتقطت قلمه من يده التي كان يكتب بها شيئًا، وثبتت عيناها علىٰ وجهه تخترقه لتستشف ما يعتمل بداخله، وسألته مبتسمة:

الوكالة أم الموافقة يا أستاذ جمعة؟

خلع نظارته التي أضطر إليها مؤخرًا، قائلًا بثقة:

بل الوكالة يا بنيتي.

وماذا عن الموافقة؟... ألا تهمك؟

أجاب من فور، وكأنه كان يعلم ما ستتفوه به:

الموافقة أمر بدهي طالما أن هناك خطبة قائمة، فضلًا عن دعوات للعرس ومدعوين، ووكيل عنك هو ولي أمرك.

يبدو أنك تصر علىٰ تجاهل الأمر يا أستاذ جمعة... إذن سأقولها لك وله ولهم.

صمتت لحظات تنظر في العيون المتلهفة، ثم قالت وهي تضغط علىٰ كل حرف من حروف كلماتها:

أنا لست موافقة علىٰ هذا الزواج يا أستاذ جمعة.

سقط في يد الجميع، واستحالوا إلىٰ تماثيل شمعية. كان أول من حركه الأمر هو إسلام الذي انتفض متجهًا إلىٰ أخيه، وقبل أن يصله أمسكه أبوه من كتفيه ودفعه مرة أخرىٰ إلىٰ كرسيه، فاستلقىٰ عليه مطرق الرأس تلتمع عيناه.

انقلبت سحنة قاسم إلىٰ ما يشبه الضفدع المنتفخ حين فتح فمه ليصرخ في هذه الصابئة.

أشار إليه الشيخ جمعة بالتزام الصمت، كان رابط الجأش، لا تنم خلجاته عن دهشة أو استنكار، وكأنما علىٰ علم مسبق بما ستقول تلك الفرسة الجموح.

عادت الحجرة للصمت المهيب كما كانت منذ لحظات، وزادوا أن كتموا أنفاسهم عجبًا وترقبًا.

قال بصوته الرخيم:

قومي يا بنيتي الآن، واذهبي إلىٰ حجرتك.

بعناد وقوة قالت:

لن أقوم حتىٰ تعلموا أنني لن أوكل أحدًا في زواجي.

لا يجوز لك تزويج نفسك، لابد من وكيل عنك.

صرحت في وجهه:

من قال تلك الخزعبلات؟

حدجها بنظرة خفي عن الناظرين كنهها، فما علموا أهي نظرة إعجاب أم نظرة عتاب؟ ولكنها استطردت بحدة وانفعال:

من قال إنني لا أزوج نفسي، وأنا التي قضيت في سنوات دراستي أكثر من أربعة أخماس عمري، وجبت البلاد والمدن، وقمت بأعمال لا يتصدىٰ لها

إلا ذوو الإرادة والقوة والصلادة، وأعمل كل يوم أكثر من نصف اليوم في دأب لا يسكن.

صمتت ثم استهجنت:

من قال إن شرعًا أنزله الله يقضي بأن يتولىٰ أمر تزويجي غيري أيا كانت صفته؟ ولماذا لا يتولىٰ عني صلاتي وزكاتي؟

هدأت حدة صوتها، غير أنه بدا أصلب وأصلد وأقسىٰ وأجرأ، وهي تقول:

قل يا أستاذ... أترىٰ إن خنت هذا الزوج أو قتلته، فمن الجاني الذي سيحاسبه شرعكم... أنا؟ أم ذلك الذي قام بإرغامي علىٰ الزواج من أجل استفادة مادية أو امتيازات سيحصل عليها؟

تمتم الشيخ بصوت خفيض:

ثمة شروط لإجبار...

كان يعلم ضعف منطقية ما يقول، ولذا لاذ بالصمت حين قاطعته بغضب هادر:

أية شروط تلك التي اشترطوها ليجبر أحد أحدًا علىٰ حياة لا يريدها؟ أهي ذاتها تلك الشروط التي كانت نتاج ثقافة بائدة وتقاليد بالية وعادات جاهلية ونعرة ذكورية أبوية مقيتة؟

وقفت واستدارت للجميع وكأنها تخطب فيهم:

ألا ترون اليوم ما أصبحت عليه المرأة؟... أصبحت وزيرة بل ورئيسة تحكم أممًا تتصدق عليكم؟

مرة أخرىٰ تواجه المأذون وتقول:

أتعلم يا أستاذ! أخي هذا الذي تريدني أن أعطيه وكالة لتزويجي ممن لا أرغبه، هو جاهل لا يكتب ولا...

إلىٰ هنا ما عاد أحد قادرًا علىٰ كبح جماح الثورة التي اتقدت في عروق قاسم، فهب منتصبًا كشيطان رجيم، تجسد ناقمًا، وقطع المسافة التي تفصله عن أخته بخطوتين، ولطمها لطمة انتفضت علىٰ أثرها كل خلايا جسدها، إلا أنها لم تذرف دمعة، وبدا وكأنها اعتادت منه ذلك كثيرًا، فنظرت إليه بكل بغض يمكن للمرء أن يحمله لأحد.

سال علىٰ جانب فمها خيط رفيع من الدم، وصرخ قاسم كالمجنون:

ستتزوجيه رغماً عنك وعن كل من يدعمك أيتها الحقيرة.

التفتت إلىٰ الجميع تقول بصوت مختنق:

أتدركون ما أنتم صامتون عنه؟

لم تحر جوابًا سوىٰ انكسار عيونهم، إن كان يصلح أن يكون الانكسار جوابًا.

إنكم تعيدون عصر الإماء والعبودية التي عانت منها البشرية، كم مرة جنيتم علىٰ بناتكم بمثل هذا؟ أتعلمون أنكم تعلمون أبناءكم القذارة والدناءة؟ أتلكم إنسانيتكم؟ أو تلكم رجولتكم الزائفة الضحلة التي تتابهون بها أمامنا؟

استمع الشيخ جمعة لهذا الحديث الثوري، مسترجعًا شريط مهنته ونظرات العرائس اللائي عقد قرانهن. منذ ساعتين كان يباهي نفسه أنه لم يعقد

قرانًا مخالفًا للقانون مرة، ولكن ماذا عن تلك الحالات التي لا تخالف قانونًا لكنها تشوّه الإنسانية؟

كانت ياسمين تملكتها حالة من الهستيريا عقب أن انهال عليها قاسم لطماً وركلاً وسبًا، واستحال وجهها إلىٰ مخضة دماء امتزجت بدموعها لتتذوق طعمًا للقهر والتسلط لم تعرفه قبل اليوم.

خلصوها من بين مخالبه بصعوبة بالغة، خرجت وتوجهت صوب حجرتها، وطردت الجميع في صياح جنوني هادر.

علىٰ تمهل، لملم الشيخ أغراضه، ممسكًا بالقسيمة التي دون فيها بيانات العروسين، ومط شفتيه وهو يتأملها مليًا.

صوت صراخ شق قلوب الجميع يأتي من حجرة ياسمين التي هرع إليها الجمع، غير الشيخ، وسمع صوت خالتها يقول في جنون:

ما هذا الذي فعلتيه يا ياسمين؟ أفي يومك عرسك تقطعين شرايينك؟

أصوات صراخ تطلب الإسعاف، وآخرون يهرولون، البكاء يعلو، وانقلب المكان لساحة لا أحد فيها يستوعب ما يحدث.

كاد صوت خالتها يشق فؤاد الشيخ الذي لم يبرح كرسيه، أسند رأسه علىٰ راحة يده، لتتجمع دمعة بعينيه تعجب لها، فمنذ وُوري جثمان أبيه لم يذرفها.

سقطت عبرته علىٰ الموضع الذي احتله اسمها من القسيمة، ليذيب الحبر ويتحول إلىٰ شيء مموه، أشبه ما يكون بلجة بلغت الغاية في الصغر.

انتشله أحدهم من شروده قائلاً:

إنها تريدك يا شيخ جمعة.

وقف بجوارها، ممدة علىٰ السرير، تسيل الدماء من وريد يدها اليمنىٰ المذبوح، وقد أمسىٰ وجهها النضير إلىٰ ما يشبه مومياء أعيدت لها الحياة للتو.

مدت يدها الغارقة بالدماء، تمسك بجلبابة الكتاني الأبيض، وقالت بصوت واهن خافت:

عدني يا أستاذ جمعة.

نظرات عينينه أخبرتها أنه سيبر وعدها فاستطرت بوهن تقول بابتسامة:

- احتفظ بهذ الجلباب ممزوجا بدمي، لا تغسله.

هز رأسه ايجابا ثم قالت:

- لا تدع دمي السائل أمامك يذهب سدىٰ أضعاث الريح.

وللمرة الأولىٰ منذ رأها اليوم كانت تبكي وهي تقول:

- أرجوك يا أستاذي لا توثق عقد رق لأحد بعدي، أنتم تجنون عليهن، أنتم تجنون عليهن، أنتم تجنون عليهن...

وظلت ترددها في خفوت ووهن، ولم يمهلها القدر لتسمع إجابته، فمنحته إبتسامة الموت المقيتة وأفلتت يدها.

-5-

عدلٌ وعدالة.

دلف إلىٰ الحفل مرتديا حلة أنيقة كسائر حلله متحررا من رباط العنق الذي طالما كره ارتاده لولا ما تفرضه عليه مهنته من قيود وضوابط.

جلس علىٰ أول مقعد خال قابله ملقيا تحية علىٰ الجمع الذي لا يعرف معظمه في حين يعرفه الجميع.

حفل زواج لأحد أقارب زوجته التي لا تنفك عن لومه جراء امتناعه عن تلبية كثير من تلك الدعوات يحدث نفسه:

- هي لا تفهم الكثير من الأمور

دائما ما يردد تلك العبارة.

لا يريحه حكم الإعدام الذي نطقه اليوم علىٰ أحد الجناة، لكنه ممثل القانون والعدل، ورغم تكرار الأمر إلا أنه لم يعتده بعد.

تابع فقرات الحفل بعينين خاويتين من الشغف أو الإعجاب مكتفيا برسم إبتسامة علىٰ وجهه الخمري فأضافت -رغم تصنعها- إلىٰ وسامته وجاهة وألقا.

فتاة في مقتبل العقد الثالث تصعد إلىٰ المسرح لتحيي صديقتها العروس برقص.

تبا لها!! تتلوىٰ وتتكسر وتنثني بظهرها لتضم رأسها بين قدميها ثم تعود منتصبة لتتهادىٰ منتشية ممتزجة علىٰ أنغام لحن شهير لأم كلثوم وكأنها جملة موسيقية من اللحن الشهير، ترفع ذراعيها الراقصتين وتدور ببطء مع اللحن، تمنح الناظرين تحية بابتسامة دلال وفرح يليقان بها، كانت تمثل

كسرا لقيود إرث عتيق، وانطلاقا نحو أفق من حرية غير مطالة.

ويبدو أن صاحبنا قد وجد ما يستحق المتابعة فغمغم في ذاته:

الفتاة بلا عظام ولا غضاريف لها تؤلمها.

ثم تنهد في عمق مستطردا في أسف:

- زوجتي لم تفعل من قبل، تقول أن ذلك لا يليق بي ولا بها، تبا لها ولما تقول.

تبادرت لذهنه صورة تلك المحامية اللعوب التي تمنحه كل مرة تقف أمامه إبتسامة خفية تخبره أنها تدري مراقبته لثنياتها وشغفه بأنوثتها -بون شاسع بين الجمال والدلال-

قطع استرساله لصورة اللعوب رجل نحيف في منتصف عقده الخامس متوسط الطول انفرط من

بين أفراد الفرقة الموسيقية يرتدي جلبابا صعيديا فضفاضا ناصع البياض، يضع علىٰ كتفه شالا داكن الحمرة ويلفع رأسه بعمامة سوداء، ذو شارب أنيق ولحية قصيرة محددة مهذبة، يمنح الحضور إبتسامة هادئة تحمل شجنا عميقا دفينا، ويطل من عينيه الفيروزتين الغائرتين وجع مكبوت، وتلتمع هموم يبدجو أنها رافقته دهر، بينما يقلب بين أصابعه نايه المخصص للعزف الفردي ذا الستة ثقوب والتسع عقل من القصب البري.

نظر صاحبنا إلىٰ الناي في يد الرجل مشدوها، له ولع بعزف الناي مذ كان في الجامعة، ردد في نفسه وكأنه يلملم ما يعرف عن تلك الآلة:

- آآآآه، الناي آلة موسيقية ضعيفة لا تكفي واحدة لتغطية مقطوعة موسيقية، تستخدم في التخت الشرقي لها طابع مختلف، إحساس

العازف مرتبط بما يصدّره لك من حس اللحن بشكل آسر.

انتبه من استغراقه فيما يعرف عن الناي حين أغمض الرجل عينيه في حركة مسرحية استعراضية ورفع ناية علىٰ زاوية فمه اليسرىٰ وأخذ في العزف، وفي لحظات خيم علىٰ الحضور صمت رهيب كأنما هم أمام ظاهرة أخذت ألبابهم ففصلتهم عن واقع عالمهم، فلاتكاد تسمع غير تنهيدات وزفرات شجية مشوبة بخلجات الوجوه.

لم يستطع منع نفسه من متابعة هذا الساحر، فسلط عينيه علىٰ وجهه الذي تتعاقب عليه ألوان الحفل المبهرة.

للوهلة الأولىٰ خيل إليه أنه ينظر لمن يعرفه حق المعرفة، وتمنىٰ لو فتح العازف جفون عينيه لينظر

اليهما، ولما لم يمنحه العازف مراده، أخذ بمسح وجهه جيدا واستحالت عيناه إلىٰ ماسحة ليزر الكترونية فأزاحت اللحية وهذبت الشارب ومحت عن وجهه التجاعيد التي بدأت غزواتها منذ فترة وأسقطت عمامته وأبدلت جلبابه قميصا ناصع البياض أنيقا وبنطالا وحذاء أسودين في ذات اللحظة التي فتح الرجل فيها عينيه منهيا أولىٰ فقراته ليتزامن التهاب الآيادي بالتصفيق الحار تجسده في صورة محروس أمام صاحبنا الذي تملكه عجب لا حدود له، فهب واقفا قائلا:

- -إنه محروس لا شك.

ضاعت كلماته مع الأصوات وأصدائها.

محروس.... ذلك المتفوق الذي لم يستطع أحد إسقاطه من علىٰ عرش المركز الأول طوال سنوات الدراسة الأربعة.

كانوا يسمونه الساحر العازف فلم يكن يفارقه نايه لحظة حتىٰ أوقات الامتحانات

علم أنه التحق بالجيش عقب الدراسة ونال الماجستير في الحقوق في عامين

يردد بصوت غير مسموع إلا لنفسه:

- مستحيل أن يكون محروس ....

ولكن هذه بصمة عينيه التي أعرفها جيدا .. عجبا لقد استحال بريق التحدي والأمل لبريق يكاد يمزق نياط القلب.... إنه هو محروس، ماذا حدث ؟ وكيف آلت به الحياة لمثل هذا؟

اقترب منه أحد الذين حيرتهم وقفته المفاجئة فبادره مستفهما:

- أهناك خطب ما يا سيدي؟ هل يمكنني تقديم خدمة لك؟

انتبه الرجل ونظر إليه صامتا، هز رأسه وأشاح بيده في حركة غير مفهومة، ثم توجه حيث محروس يعزف، وصل إليه إلا أن محروس بدا وكأنه تعمد تجاهل النظر إليه فأولاه ظهره وبدأ في عزف مقطوعة أخرىٰ.

وضع صاحبنا يده علىٰ كتف الرجل وأداره ناظرا لعينيه قائلا بخفوت وعجب:

- محروس هذا أنت أليس كذاك؟

رفع محروس يده مزيحا يد صاحبه برفق حازم متمتا بمرارة تقطر من كل حرف مختنق بحلقه جراء دموع يكابدها:

- لا يا سيدي ... أنا لست محروس.

صمت برهة ليجيب تساؤلات صامتة حائرة في عيني صاحبه تبتغي جوابا:

- -أنا خادمك محروس ياحضرة القاضي.

أتبع قوله بأن أغمض عينيه مرة أخرىٰ ليعتصر عبرة تجاهد للفرار من سجنها، انفرطت رغما عنه فالتقطها بكفه قابضا عليها فانهرت غيرها حارقة وجهه، استدار موليا ظهره لصاحبه ليكتم نهنهاته ومقيدا انتفاضة جسده الهزيل، وكابتا رغبة في الإنهيار تكاد توقعه أرضا، ثم استدار مرة أخرىٰ مواجها له قاطعا عليه استدراك الحديث بإشارة صارمة من يده.

صباحاً توجه بقدمين ثابتتين وعينين متورمتين كقطعة من دم متجمد نحو مكتب رئيسه فك زر ياقة قميصه الخانقة وأرخىٰ رباط عنقه وبدا حاداً حين فتح الباب وأغلقه خلفه مبتدراً رئيسه بهدوء صارم:

- أخبرنى عن طبيعة مهنتى ياسيدي.

تفحصه رئيسه ملياً ثم أجاب بابتسامة ودودة:

- أنت ممثل العدل والقانون.

إثر ذلك ناوله ورقة مطوية كانت بيده قائلا:

- إذن فهذه إستقالتى.

ثم استطرد مجيباً عن تساؤلات الدهشة والحيرة فى عينى رئيسه:

- نعم ياسيدي.... إستقالتى، فلست أستطيع أن أقيم العدل على أرض تفتقر الى العدالة. ثم غادر وقد تحلل من رباط عنقه تماماً.

تم بحمد الله

دار الفراعنة للنشر والتوزيع